سميرة محمود

جثة في الجاكوزي

رواية

عصير الكتب

جثة الجاكوزي

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- رقم الإيداع: 28084/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-365-9
- العنوان: جثة الجاكوزي
- تدقيق لغوي: عبير عبد الرحمن الفياض
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

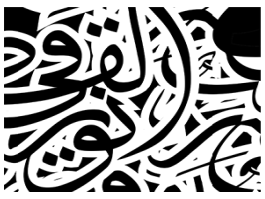

سميرة محمود

جثة الجاكوزي

رواية

عصير الكتب

إهداء

إلى من كان له الفضل في حثي على نشر
كتابي الأول بعد رحلة طويلة من الانتظار والتردد.

إلى جميع الأرواح التائهة في هذا العالم،
يومًا ما سوف نجد الطريق.

قبل البداية

كانت ليلة ممطرة وكئيبة، هذا هو حال الشتاء هنا، وأحيانًا حتى الصيف، أمطار متواصلة، متواصلة إلى الدرجة التي قد تُسبب فيضانات في بعض المناطق، هذه الأجواء من بين كل شيء هي أحد أقوى الدوافع بالنسبة إليَّ لأضيء شاشة حاسوبي، وأفتح ملفًّا جديدًا لتخرج أمامي ورقة بيضاء، تُعلِمني باستعدادها لألقي عليها كل ما يجول بخاطري من هواجس وخرافات لا معنى لها، ولا شأن لها بأي واقع يدور حولي.

لا بدَّ من أن شيئًا ما في هذه الليلة قد رسم صورهم داخل خيالي، دائمًا ما أمُر بالشعور نفسه في كل مرة أبدأ بكتابة شيء جديد، أشعر أنني لا أرى النهاية، لا أعلم عنها شيئًا، سأكتشفها مع الوقت كأي شخص سيقرأ فيما بعد، يتتبع الحدث تلو الآخر حتى يصل إلى النهاية، أو إلى تصور لكيف ستكون، الفرق الوحيد أنني أكتشفها كلما أكتب، أما أنت ستكتشفها حين تقرأ سطرًا تلو الآخر، وتُقلِّب صفحة تلو الأخرى، فأتمنى أن تستمتع، بداية من هذه اللحظة ووصولًا إلى النهاية.

فأهلًا بك معي في رحلتي لاكتشاف النهايات، إن وجدت...

الفصل الأول

وسواس

«حين يكون كل شيء ليس إلا نهاية،
ولا وجود للبدايات».

أتذكر أن الأمر كان غاية في السوداوية، كريشةٍ تغمس في قنينة حبر أسود، فتغرق في هذا السائل الذي يغلف شعيراتها، ويثقلها فتغوص لأسفل وصولًا إلى القاع، عندها فقط تعلم أن كل شيء انتهى بلا عودة.

ربما كان الأمر مشابهًا أو هذا ما ظننت، لكن كل شيء كان قاتمًا، فلم يكن هناك من طريق واضح المعالم، لذا أي طريق وقتئذ كان كافيًا، بل ربما أكثر من كافٍ، فلم يعد شيء مهم سوى التخلص من هذا الشعور غير المفهوم الذي يغلف كل يوم، ويجعله بلا معنى أو حتى بلا هدف.

لم أعد أتذكر متى بدأ ذلك، فربما قد بدأ منذ مدة طويلة قبل أن أدرك أو أعلم حتى بوجوده، ولكن أعلم يقينًا أنه قد تفجر في داخلي تلك الليلة حين سقط بجواري جثة هامدة، داهسًا الحشائش الخضراء في الحديقة وزهرة الليلَك البنفسجية التي زرعناها معًا، واهتممنا بها لسنوات عدة، أصبحت أرى كل شيء بنظرة مختلفة كما لا يراه غيري.

***

النوافذ دومًا مغلقة ومغطاة بستائر سميكة بما يكفي حتى لا يتخللها الضوء، سرير مرتب على الرغْم من وجود من يغفو عليه، هزة الهاتف القصيرة التي تنبِئ بأن الساعة قد أصبحت الثامنة صباحًا، قبل أن تمتد يد مرتعشة لإسكانها.

ظهرت قدماها من تحت الغطاء الثقيل في بداية الصيف، ولكن وجهها كان لا يزال مخبأ في مكان ما تحت الغطاء الذي يلف جسدها النحيل المتكور حول نفسه، قامت في تثاقل وبطء شديدين ليبدأ التكرار اليومي.

حمام ساخن سريع، ثم صوت الفرشاة، وهي تحتك بقسوة بمينا الأسنان، مصاحبًا لصوت المياه الذي لم ينقطع للحظة خلال النصف ساعة الأخيرة، خلف ذلك الباب.

خرجت بعد انقطاع صوت المياه، قطعت الغرفة ذهابًا وإيابًا لأكثر من 5 مرات وهي تتلاعب بخصلاتها المبللة المبعثرة على وجهها وقد نسيت في المرة الثالثة عما تبحث.

التقطت ربطة شعرها من على الطاولة المستندة إلى الحائط بالقرب من السرير، وأزاحت بها خصلاتها عن وجهها البيضاوي الصغير ثم ارتمت على الفراش الذي أصبح غير مرتب للتو، حين سحبت الوسادة واحتضنتها ثم التقطت بيدها اللاب توب من على الطاولة ذاتها. انطلق ضوء الشاشة الخافت ثم صوت إشعار وصول رسالة هادئ، تفقدت الرسالة التي وصلت إليها على البريد الإلكتروني، نظرة ثاقبة سريعة، موعد الوصول اليوم، الثامنة صباحًا، المكان مكتب البريد. أغلقت اللاب توب وألقته على الطاولة مجددًا ثم هبت واقفة.

بعد ثلث ساعة أخرى خرجت خلف نظارتها السوداء وشعرها البني المبعثر يغطي أغلب وجهها. كان كل شيء لا يزال مظلمًا أمام عينيها اللتين لم تعدا تقبلان أي أشعة مضيئة تمر بهما، لكنها كانت ترى الطريق أمامها بوضوح يكفي، قطعت الحديقة الممتدة بين باب منزلها والطريق في لمح البصر ثم أشارت بيدها إلى سيارة الأجرة المارة بها وقفزت داخلها.

لحظات ثقيلة من الصمت انتظر فيها السائق تعليمات الراكبة التي لم تبدُ منتبهة لذلك بالمرة، قبل أن يتخذ قرار المبادرة بالسؤال: «إلى أين سيدتي؟».

نظرت إليه نظرة مشمئزة، ولكنه لم يكن ليعلم ذلك بسبب تلك النظارة الداكنة، ثم أجابت بلا اهتمام وهي تخرج قلمَ رصاص وكتابًا أبيض الصفحات من حقيبتها المتدلية بجوارها: «شارعان إلى الأمام ثم التفت يمينًا ثم يمينًا آخر ثم يسارًا».

قلبها السائق في رأسه للحظة ثم قال: «تقصدين شارع مكتب البريد؟».

أجابت دون تركيز وقلمها يصدر حفيف اصطدام مع الورقة: «أجل».

– كان يمكنك أن تقولي ذلك ببساطة، أعرف الطريق، فأنا من هذه البلدة سيدتي، هل أبدو لك غريبًا؟ أصدقائي يخبرونني أنني أشبه...

قاطعته بحدة: «لا...».

أجاب في حرج: «حسنًا، على كل حال أنا أوصِّل عامل البريد الذي يعمل في الفترة المسائية في هذا الوقت كل يوم من المكتب إلى بيته، لذا...».

قاطعته مرة أخرى دون أن تلتفت إليه: «أعلم ذلك».

مرت لحظات ثقيلة لم يسمع فيها سوى صوت حفيف قلم يتحرك بسرعة مذهلة على ورقة استسلمت كليًّا له، لكنه لم يكن يستطيع رؤية أي منهما مما أثار فضوله.

بعد عدة دقائق...

السائق: «ها هو مكتب البريد، لقد وصلنا».

دفعت الراكبة الأوراق النقدية إليه بينما كانت يدها الأخرى تفتح باب السيارة ثم خرجت في لحظات، اختفت داخل مكتب البريد، فتنفس السائق هُنَيهَة وعدَّ نقوده، ثم دفعه فضوله إلى النظر إلى المقعد الخلفي علَّه يفهم ما الذي كان يجري هناك في الخلف، لم يكن يتوقع الكثير، فأيًّا ما كان يحدث من المفترض أن ينتهي بخروج الراكب من السيارة، أليس هذا هو المعتاد بالنسبة لسائق سيارة أجرة؟ لكن

الأمر لم يكن كذلك، ليس اليوم على الأقل، نظر السائق إلى الخلف حيث كانت تجلس فوجد ورقة عليها رسم بالرصاص ملقاة على المقْعَد الخلفي، أمسك بالورقة وتأملها قليلًا ليفهم ما يدور فيها ثم نطق بثلاث كلمات: «قطة – نهر – سيارة».

خرج السائق من السيارة واتجه إلى مكتب البريد ليلحق بالفتاة ويعطيها رسمها غير المفهوم، فهو لا يريد أن يشغل يومه بأي هراء. حثَّ الخُطى إلى مكتب البريد وعيناه مثبتتان على الورقة في يده حتى دلف من الباب.

السائق: «مرحبًا».

عاملة الاستقبال: «مرحبًا سيدي، يمكنك ملء هذه الاستمارة وانتظار دورك».

– لا، لست هنا لاستلام بريد.

– إذًا كيف يمكنني مساعدتك؟

– أبحث عن فتاة دخلت للتو، ذات شعر بني ترتدي ملابس سوداء ونظارة سوداء في قرابة العشرين من عمرها.

ثم وقف ينظر حوله خلال القاعة.

– إذًا لم تكن في هذه القاعة، فربما قد خرجت.

– كيف لم ألاحظها؟ لا بد أنني تأملت كثيرًا في هذا الرسم.

– ربما ما زالت في الخارج ولم تبتعد بعد.

– بالطبع، شكرًا لك سيدتي.

خرج السائق مسرعًا وتفقد الطريق ببصره عدة مرات قبل أن يقرر العودة لسيارته متجاهلًا الأمر، فلم يعد يشغل تفكيره، إن كانت قد تركتها فلا بد أنها ليست بتلك الأهمية فهي مجرد رسمة على أي حال، ربما أكثر ما كان يزعجه هو أنه كان يفضل لو أنها تركت له رسمة لوجهه أو لوضعيته وهو يقود السيارة حتى يريها لأصدقائه.

وصل السائق إلى سيارته وهمَّ أن يفتح الباب حين وجد ورقة أخرى على مقعدها الأمامي وبجانبها زهرة بنفسجية.

منذ 10 دقائق

دخلت مكتب البريد كالرياح العاصفة وأمسكت الاستمارة التي قدمتها لها عاملة الاستقبال، متجاهلة تلك المحادثة المعادة آلاف المرات، وشرعت في ملء الاستمارة بقلمها الرصاص الذي كانت تحمله، قدمتها إلى العاملة التي تقف في المكتب المجاور، ثم اتجهت إلى آخر الرواق متجاهلة محادثة أخرى كانت على وشك أن تبدأ بـــ: «صباح الخير، كيف أستطيع مساعدتك سيدتي؟».

بعد وهلة التفتت عاملة المكتب الثاني إلى العامل الذي بآخر الرواق قائلة: «بريد رَقْم 57674 الذي وصل صباح اليوم».

اتجه ذلك العامل إلى غرفة مغلقة للحظات ثم عاد حاملًا طردًا صغيرًا، وضعه على الطاولة أمامه ثم أمسك بالاستمارة المرسلة من عاملة المكتب الأول ليضع عليها خَتْمًا أحمر يعلن بقوة أنه قد سُلِّم، ثم رفع رأسه ليُحيي صاحبة الطرد، ولكنها كانت قد رحلت ومعها المغلف.

التقيا عند الباب، كان السائق يدلف إلى مكتب البريد وهو ينظر بتمعن إلى تلك الورقة التي بيده، حتى إنه لم يلحظها وهي تعبر بجواره، فتجاهلته وعادت للسيارة الأجرة الخاصة به، ألقت بورقة أخرى على المَقْعَد الأمامي ثم أشارت إلى سيارة أجرة كانت تعبر الطريق وأعطت السائق عنوان المنزل.

***

رفع السائق الورقة وقربها من وجهه، وقبل أن يغوص في تفاصيلها، لاحظ علامات على الظهر، قلب الورقة في يده ليجد نصًّا قصيرًا للغاية: «عندما نقترب من النهاية نرى العالم بأعين مختلفة». قلب الورقة مرة أخرى، إنها تشبه تمامًا الرسمة الأولى، ولكنها أوضح، بل وتحمل تفاصيل أكثر، وضع الرسمتين بجوار بعضهما كمن يحل لغز الاختلاف بين لوحتين.

هناك نهر، لماذا يذَكِّره هذا النهر بشيء ما؟ وهناك قطة لديها دائرة حول عينها اليمنى، ثم هناك سيارة تظهر من الخلف في النهر والقطة تنظر إليها، يبدو أن السيارة قد سقطت للتو في ذلك النهر فهو لا يزال يستطيع رؤية ظهرها بالكامل، تأمل بشكل أكثر تركيزًا، هناك لوحة على ظهر السيارة، بالطبع هناك لوحة دائمًا ما يكون الأمر كذلك، ولكن اللوحة ليست مجهولة، فقد كُتب عليها بخط باهت "65423" وهو ما استوقف السائق للحظة.

إنه رَقْم سيارة الأجرة، أجل نفسها التي يكون هو سائقها، ظهرت علامات الصدمة على وجهه بينما وقف يتأمل الرسم الدقيق الذي يُظهر سيارته غارقة في نهر، لماذا يشعر أنه مشهد مألوف؟ هل لأنه يشبه النهر الذي يمتد على أطراف البلدة وصولًا إلى الطريق المؤدي إلى البلدة المجاورة، الذي غالبًا ما يمر به،

النهر نفسه الذي يعبر بجواره عدة مرات يوميًّا، والذي عبره عند إيصال عامل البريد منذ أقل من ساعة؟ قذف الأمر بالرعب في قلبه وجعل الوساوس تتحكم في عقله.

لماذا ذُكرت النهاية في ظهر الورقة؟ ولماذا قد تكون لوحة السيارة هي لوحة سيارته؟ وما شأن القطة بهذا المشهد؟ لم يكن عقله يتحمل المزيد من الأسئلة التي بلا إجابات، خاصة تحت أشعة الشمس الحارقة التي نبهته إلى وقوفه بالقرب من السيارة في ذهول خلال الدقائق الماضية، مَدَّ يده وأخذ الزهرة ثم دخل سيارته وارتمى على مقعده واضعًا الرسم والزهرة على المَقْعَد المجاور، تنفس بقوة ثم عزم أمره على التوجه إلى منزل الفتاة للحصول على إجابات.

قاد السيارة بسرعة جنونية تدفعه رغبته في الحصول على تفسير. جميعنا نقوم بأفعال متهورة عندما يتعلق الأمر بالإجابات، أليست طبيعة بشرية نولد بها؟ إنها حب المعرفة خاصة عندما يتعلق الأمر بنا، بل ربما فقط عندما يتعلق الأمر بنا، عندها يصبح أي شيء مباحًا حتى نحصل على إجابات مرضية. كانت عيناه ما بين النظر إلى الطريق أمامه مرة وإلى الرسم مرة حتى إنه كاد يصطدم بسيارة أجرة أخرى عائدة من الطريق ذاته، تفاداها في آخر لحظة مما جعله يتوقف على جانب الطريق وهو يلهث، فقد كاد أن ينهي حياته للتو في حين أكملت السيارة الأخرى طريقها دون اكتراث.

ما هذا اليوم العجيب؟ يا له من يوم ثلاثاء حافل، فكرة حفرت في رأسه وغلفتها كل الأحداث التي وقعت له منذ الصباح، حتى أصبح يرى كل الأمور بشكل مختلف، خروجه من منزله إلى عمله، مقابلته لركابه هؤلاء دون غيرهم، ألم يكن الأمر روتينيًّا منذ قليل؟ فلماذا يشعر بأن شيئًا ما قد اختلف اليوم؟ أمسك بالورقة الثانية مرة أخرى ليقلبها وينظر مجددًا «عندما نقترب من النهاية، نرى العالم بأعين مختلفة». يا إلهي! أي نهاية تلك المقصودة؟ كانت آخر فكرة عبرت خاطره قبل أن يستعيد قرار الذَّهاب إلى منزل الفتاة.

***

خرجت من سيارة الأجرة متجهة نحو منزلها، عدة خطوات أخرى بعد، لماذا لا تستطيع إنجازها دون التفكير فيه؟ عادت للخلف مجددًا ثم اتجهت يمينًا إلى المنزل المجاور، تنقلت بين الشرفات محاولةً إلقاء نظرة بالداخل لكنها لم تستطع رؤية الكثير، أزعجتها الفكرة كثيرًا فقررت الرحيل، لكن قدميها خانتاها مجددًا. اتجهت إلى الباب الخلفي وحاولت إلقاء نظرة عبر الزجاج الذي يجعل الرؤية شبه مستحيلة، لم ترَ أحدًا ولم تشعر بأي حركة داخل المطبخ، طرقت الباب عدة طرقات سريعة هادئة دون إجابة، انتظرت قليلًا ثم عادت لتطرق الباب بقوة أكبر، لكنها مجددًا لم تشعر بأي حركة بالداخل، نظرت بقلقٍ إلى ساعة

يدها التي تدق دون توقف وكأن كل دقة من عقربها تنذر بوقوع مصير مشؤوم في مكان ما من هذا العالم الواسع، أليس هذا هو الواقع؟ فمع كل دقة يموت الكثير حول العالم ويجلب غيرهم أرواحًا جديدة إلى العالم ذاته. كانت الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، تساءلت: «لماذا لم يعد حتى الآن؟ في العادة تحضره السيارة في التاسعة والنصف، ربما تأخر قليلًا اليوم».

عادت للباب الأمامي وترددت قليلًا ثم بدأت في طرقه عدة مرات دون جدوى، انتظرت قليلًا لا تعلم لماذا، وحين همت بالرحيل اصطدم شيء صلب بحذائها، انحنت لالتقاطه ثم قربته إلى وجهها، إنها القلادة التي تحمل صورة العائلة بداخل قلب ذهبي صغير يُفتح بمفتاح خاص معلق معه. لقد أسقطها ذلك العجوز دون أن يعلم، لا بد أنه سيبحث عنها حين يعود، ترددت ما بين الاحتفاظ بها أو إعادتها حيث كانت، حتى نبهها صوت مزمار سيارة تقف بالقرب، فنظرت بلهفة علَّه يكون قد عاد، لكن السيارة كانت تقف أمام باب منزلها هي.

***

في تمام الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة كان السائق المضطرب يقف بسيارته أمام منزلها محاولًا استجماع قواه لبدء المواجهة، أخذ نفسًا عميقًا وكلتا يديه تتمدد على المقود، وقبل أن يظفره علا صوت رنين هاتفه في جيبه مما جعله يقفز من مقعده واصطدمت يده بمزمار السيارة الذي أصدر صرخة عالية لتزيده توترًا، نظرة واحدة إلى الشاشة كانت كافية أن يتذكر، إنها السيدة التي تسكن في نهاية شارع مكتب البريد وقد طلبت منه الأسبوع الماضي حين كان يقلها أن يأتي لاصطحاب قطتها المريضة إلى موعدها لدى الطبيب، الذي سيكون في تمام العاشرة والنصف، لأنها ستكون مشغولة بأمور أخرى.

ضغط زر الرد في تردد وحرج...

العجوز: «مرحبًا».

السائق: «مرحبًا سيدتي، بالطبع أتذكر، ولكن حدث ما جعلني أتأخر... أعتذر إليك... أجل أعلم أن الموعد في العاشرة والنصف... سآتي لاصطحابها بأسرع ما يمكن... وداعًا».

إنها تلك اللحظة الفارقة، حين يكون علينا أن نختار ما إذا كان يجب أن نسير وفقًا للخطة التي وُضعت سلفًا، أو نكون مَرِنين كفاية للتعامل مع قدَر جديد ظهر في طريقنا بالمصادفة، أو ربما هي ليست مصادفة.

هنا وقف السائق متحيرًا، أيطرق ذلك الباب الذي لا يبعد عنه سوى عدة خطوات، أم يسرع لطرق باب آخر لن يجد لديه أي إجابات، بل المزيد من اللاشيء الذي لا يعلم بحق لِمَ يقوم به.

لقد كان متأخرًا في كل الأحوال، ولكن يبدو أن هذا لم يكن كافيًا لكي يتخلى عن مسؤوليته التي لن يلومه أحد إذا لم يقم بها... فقد امتدت يده لتدير المفتاح في ذلك الثَّقب الصغير، لينطلق ذاك الصوت المزعج في مقدمة السيارة، الغريب في الأمر أنه لاحظ للتو كم يزعجه هذا الصوت الذي يبدو أنه يسيطر على حياته.

انطلقت السيارة مسرعة في طريقها عائدة لشارع مكتب البريد، لم يتوقف سائقها للحظة محاولًا استيعاب القرار الذي اتخذه أو كيف قد يؤثر في حياته، إلى أن وصل إلى باب منزل العجوز التي كانت تنتظره مع قطتها في حديقة المنزل، تلك القطة المريضة التي ذهب بها إلى الطبيب منذ أسبوع، يا لها من قطة مميزة مع تلك الدائرة البنية الكبيرة حول عينها اليمنى، لتخفف من حدة لونها الأبيض وسطوع عينيها الزرقاوين.

- مهلًا لحظة... دائرة حول عينها اليمنى!

قالها بصوت مرتعش وكأنه يخرج من داخل أفكاره البائسة ليرسم علامة استهجان على وجه العجوز، وربما لو لم تكن القطة مريضة لفعلت بالمثل.

- ماذا هناك؟

سألت العجوز لكنها لم تحصل على رد...

ارتخت كل خلايا جسده لتلك الخيوط التي قد بدأت في الترابط داخل عقله، حتى لم يعد يقوى على الوقوف، نظرت إليه العجوز باستغراب وقلق ثم حملت قفص قطتها واتجهت به إلى السيارة تاركة إياه يقف كالشجرة في منتصف الحديقة.

مرت دقائق ثقيلة قبل أن تعود العجوز لتضع يدها على كتفه وتهزه بقوة ليفيق من أفكاره المبعثرة عائدًا للواقع، نظر إليها كمن استيقظ للتو من حلم، بل بالأحرى كابوس، ثم اتجه دون أي كلمة إلى سيارته في استسلام تام لقدره.

جلس على مقعده وألقى نظرة عابرة على القطة التي تستغرق في النوم داخل قفص صغير على المَقْعَد الذي بجواره، في حين وقفت العجوز في حديقتها في قلق وحزن وهي تشاهد السيارة تنطلق مبتعدة عنها متسائلة: «هل انتبه لما قلته حتى؟ أيعلم أني قد أخرت موعد الطبيب نصف ساعة وأنها تخشى الماء كثيرًا؟».

***

عادت لمنزلها بعد أن رأت سيارة الأجرة تتحرك، لم يلاحظها السائق مرة أخرى على الرغْم من أنها كانت تقف أمام المنزل المجاور، ألقت حقيبتها على الكرسي الذي بجوار الباب واتجهت نحو الشرفة الصغيرة لتلقي نظرة على زهرتها البنفسجية وتستنشق الهواء المعبأ برائحتها الزكية ثم إلى المطبخ لتعد شيئًا تتناوله، عندها سمعت صوت طرقات ضعيفة على باب المنزل، تحمست لأول مرة لفتح باب منزلها عند طرقه أملًا أن العجوز قد عاد من المستشفى بعد أن قضى ثلاثة أيام في غيبوبة، حيث نقلته سيارة الإسعاف الأسبوع الماضي من سيارة الأجرة التي كان يستقلها إلى المستشفى، بعد إهمال السائق له لفترة كافية لتسوء حالته، ثم بقي للعلاج الإشعاعي المعتاد لأربعة أيام إضافية، فهو مريض سرطان، وإن كانت لا تعلم أي نوع من السرطان أو إلى أي مرحلة قد وصل ولم تسأل من قبل، فليس لديها فضول حول الأمر، يكفي أن يكون بخير.

تحركت ببطء حتى وصلت إلى الباب وهي تضغط بأصابعها بقوة على القلادة التي وجدتها، أدارت المِقْبَض ثم وقفت للحظات ثابتة قبل أن تسحب الباب، لقد نجحت في رسم ابتسامة باهتة على شفتيها البيضاوين كمرضى الأنيميا، ولكن لم يكن هناك من عجوز بالباب. وقف الرجل صاحب الرداء الأزرق ينظر إلى الصدمة التي تعلو وجهها هُنيهة ثم قال متلهفًا: «لقد وصل إليكِ خطابًا من المشفى المركزي، من فضلك وقعي هنا».

أمسكت بالقلم الذي قدمه لها ووقعت على ورقة الاستلام، ثم تناولت الخطاب من يده ودخلت وأغلقت الباب.

– خطاب من المشفى! لماذا قد ترسل إليَّ المشفى خطابًا؟ هل سجلني العجوز وصيًّا لأن ابنه مسافر؟ يا إلهي ماذا يحدث؟!

ألقت بالخطاب على فراشها ثم عادت للمطبخ لتتخذ ذلك القرار المحير حول ماذا يجب أن تأكل، وقفت أمام ثلاجتها لمدة تحاول التفكير، لكن ذهنها لم يكن حاضرًا، فقد سقط على الفراش بجانب الخطاب الغامض، عدة دقائق من اللاشيء ثم لم تستطع منع نفسها من العودة لغرفتها.

***

هناك صوت في رأسه يخبره أن يتوقف، وصوت آخر يأمره أن يذهب إلى النهاية ليرى ماذا سيحدث، ليحصل على إجاباته وتنتهي حيرته، ليتيقن من مصيره. سار بالسيارة بكل حذر أكثر من عشر دقائق وها هو يمر بجوار النهر الآن، نظر إلى جواره ليجد أن القطة نائمة في هدوء وسكينة، لا تبدو كقطة

شريرة أبدًا، بل هي مجرد قطة مريضة لا تقوَى على افتعال المشكلات أو إيذاء أحد، حتى لو كان شخصًا ضعيفًا بائسًا مثله.

عشر دقائق أخرى وينتهي النهر ويكون قد وصل إلى بر الأمان، لم يكن هناك داعٍ لكل هذا الخوف، إنها مزحة، مجرد مزحة سيئة من فتاة شقية كانت تعلم عن موعده مع القطة والطبيب، ولكن كيف؟ حاول بقوة أن يبحث داخل رأسه ليتذكر ما حدث الأسبوع الماضي، ثم أخذ يرتب الأحداث، أوصل العجوز وقطتها إلى الطبيب واتفقا على أن يلتقيا بعد نصف ساعة، فعاد في العاشرة والنصف وأقلهما عائدًا، وصلوا إلى منزل العجوز وقبل أن يودعها أخبرته أن يأتي في الأسبوع المقبل ليأخذ القطة مجددًا إلى الطبيب، ثم سلمته وصفة طبية ليحضرها من الصيدلية المجاورة، فذهب إلى الصيدلية وأخبر القصة للبائع هناك، إنه لا يتذكر تمامًا إذا كانت الفتاة قد وُجدت هناك في ذلك الوقت وقررت اللعب معه، لكنه على أتم الثقة بأنه لم يكن هناك فتاة، فقط عجوز طلب منه إيصاله إلى المشفى في طريق عودته بالدواء وقص عليه أمر القطة، كان يبدو عليه المرض والإعياء حتى إنه لم يكن يستطيع الوقوف فأخذه معه بالسيارة وطلب منه أن ينتظره، إنه حتى لا يعلم ما حدث لهذا الرجل، فقد ذهب لإعطاء دواء القطة للمرأة العجوز ولم يشعر بمرور الوقت حين توقف للحديث معها، ثم عاد لسيارته ليجد أن العجوز المريض يغط في نوم عميق بالفعل، فطلب له سيارة إسعاف تقله حتى لا يتسبب له في مشكلات، لكن ربما قد سمعت الفتاة القصة من الصيدلي أو العجوز الذي كان ينتظر، أو ربما هي على علاقة بالسيدة صاحبة القطة، هذا كل ما في الأمر، لقد كانت تعلم وحاولت أن تمزح معي مزحة سيئة وكادت أن تنجح.

شعر بارتياح بعض الشيء لتذكره هذه الأحداث وربطها بالرسم، وباغته شعور انتصار لحظي، فأمسك بالزهرة التي أمامه واستنشقها بقوة، ثم ضغط على زر أمامه يفتح نوافذ السيارة الأمامية ليتخللها بعض الهواء غير المكيف ويرحم هذه القطة الصغيرة التي قد تمرض أكثر بسبب المكيف.

نظر من النافذة إلى النهر مودعًا مصيره المشؤوم الذي لم يتحقق، ليسمع صوت مواء القطة يعلو قبل أن تطل برأسها من النافذة محاولة الخروج، أسرعت يديه للإمساك بها وإعادتها إلى مقعدها تاركًا عجلة القيادة تنزلق لتطيح السيارة خارجةً عن طريقها ومتجهة بوجهها إلى النهر، مرة أخرى عاد ليترك القطة المذعورة ليمسك بعجلة القيادة المتأرجحة، وما بين إنقاذ القطة أو إنقاذ نفسه لم يعد أيٌّ من الخيارين بيده.

نعم إنه قرار واحد قادر على إنهاء كل شيء، أو بدء كل شيء، قرار واحد قادر على أن يكون الخط الفاصل بين الأبيض والأسود، بين الموت والحياة.

انتصرت القطة التي قفزت من السيارة قبل أن تسقط في النهر، قفزت لتنجو بحياتها لأنها تخشى الماء لا الموت ذاته، فما قدْر معرفة قطة صغيرة مدللة بالموت! حركها خوفها من الماء فأنقذ حياتها، وحركه وسواسٌ زُرع في رأسه فأودى بحياته، أخذه ذلك الوسواس كل الطريق إلى نهايته فأصبح لا يملك مصيره، ترك العنان لأوهامه لتتحكم فيه، فكانت النهاية المأسوية.

لم يكن هناك في هذا المشهد ما يشبه أيًّا من وساوسه، لم تقف القطة لتنظر إلى السيارة ولم تصطدم السيارة في الماء بوجهها، بل بجانبها حيث كان يجلس، لم يكن مصيره محتومًا ولم تكن الفتاة لتعلم أي مصير سيعيش، ربما كانت مزحة سيئة، ولكنها مزحة تلاعبت بعقل بشري ضعيف بما يكفي ليُهزم أمام سطوتها.

***

عادت لغرفتها، وقفت ببابها للحظة ثم اندفعت إلى الداخل، مدت يدها والتقطت الخطاب، فتحته على عجل حتى كاد أن يتمزق. كانت في قمة غضبها تحاول أن تلف بعينيها داخل الورقة التي في يدها، إلى أن تركزت عيناها على آخر سطر في الخطاب، كان من كلمة واحدة: «وداعًا».

ليست وداعًا تلك الكلمة التي تقال عندما تنهي المكالمة مع شخص ما أو تفترقان في منتصف الطريق ليذهب كل منكما في اتجاه، باغتها ذلك الألم الذي يحتل الصدر كغازٍ قوي يضع راية انتصاره على أرضه الجديدة التي حارب للوصول إليها، ونالها وآن الأوان أن يحتفل، فلا بد أنه وداع مختلف من ذلك النوع الذي يهز البدن ويصعق الأوصال ويفتك بالروح ليتركها ذابلة.

عادت عيناها مسرعتين لبداية الخطاب لترى: «عزيزتي، إذا وصلك هذا الخطاب فهذا يعني أنني قد رحلت، هذه المرة لن أعود بعد عدة أيام لأخبرك قصص الأشخاص الذين أقابلهم في المشفى، أو أيًّا من حكايات الماضي، كنت أتمنى أن أبقى معك لمدة أطول قليلًا، لكنني رحلت دون عودة، أعلم أنك لن تشتاقي إليَّ على أي حال، ولكني سأشتاق لك كثيرًا يا صغيرتي البائسة».

شعرت برعشة أطرافها الجارفة فتوقفت، لا يمكنها أن تقرأ المزيد، ليس من المفترض بها أن تشعر بشيء، فما الذي يحدث؟ لماذا ينتفض جسدها لرحيله؟ أليس مجرد عجوز مريض؟ أليست هذه هي النهاية المتوقعة؟ أليست الفتاة القوية التي لا تهتم لأمر الآخرين؟

للمرة الأولى منذ مدة طويلة، كان كل شيء لا معنى له أكثر من ذي قبل، بعد أن كانت تظن أنه ليس من الممكن أن يزداد الأمر سوءًا، تلك السطور المبعثرة التي خطتها يد مرتعشة مستندة إلى وسادة مائلة على فراش مشفى صفعتها صفعة جديدة قوية، تلك الصفعة التي تخبرنا أن الحياة ما زالت لديها المزيد،

وأننا ما إن ظننا أننا أقوياء كفاية، فهي تعلم جيدًا كيف تصنع لنا نِقَاط الضعف ثم تضرب بقوة بمجرد أن نضع حصوننا أرضًا، كالعدو الغادر الذي يحارب بلا شرف وينتصر في كل مرة.

ضربات القلب المتسارعة التي تهتز لها الأوصال في عنف، الحلْق الجاف إلا من بعض المرارة التي تُنبِئ بأن كل ما فيك يشعر بالألم، وكأن جسدك يواسيك وترتخي كل عضلاتك لتساعدك على امتصاص تلك الصدمة، سقط الخطاب إلى مكانه على الفراش لكن كل شيء في العالم لم يكن في مكانه، فقد حل زلزال بعالم أحدهم بما يكفي ليوقن أن أي شيء لم يكن ليعود لما كان عليه.

الفصل الثاني

ألبا

ما رأته أمي في تلك الليلة أثار الرعب في قلبها إلى اليوم، أما أنا فقد تغيرت حياتي إلى الأبد.

دعني أروِي لك القصة من البداية، منذ 10 سنوات كانت أمي تعمل في خدمة تنظيف الغرف بفندق ألبا، وألبا هو اسم ابنة مالك الفندق، اسم لاتيني يعني أبيض، لذا يمكنك أن تتخيل معي كيف كان الفندق، كانت أرجاؤه بيضاء وغاية في النظافة، جدران مطلية بالأبيض، أثاث أبيض ومن فوق طاولاته وأسِرَّته أغطية بيضاء، ملابس الطاقم بيضاء من الرأس إلى الحذاء حتى تكاد لا تعرف من منهم يعمل في أي قسم لولا اختلاف طفيف في شكل الملابس، كل شيء حولك في هذا المكان أبيض، لذا كانت خدمة الغرف حيث عملت أمي من الوظائف المرهقة التي يشرف عليها السيد كاسل مدير الفندق بنفسه، حيث كان يمر على جميع الغرف كل يوم وربما أكثر من مرة في اليوم حين ينسى قيامه بذلك بالفعل.

حتى تلك الغرف المغلقة التي ليس بها نزلاء كانت تُنَظَّف وتُهَوَّى يوميًّا لكي لا تتمكن الرطوبة من أسطحها البيضاء، فقد كان الفندق يطل بأحد جوانبه على الشاطئ.

كان كل شيء على ما يرام خلال السنوات الثلاث التي عملت فيها أمي بالفندق، بعد أن رشحها للسيد كاسل زوج خالتي الثالث في ترتيب أزواجها، ويدعى عادل الذي عمل موظف خدمة الغرف بأحد الفنادق القريبة، حتى نُقل إلى أحد فروع الفندق في الخارج وانفصاله عن خالتي قبل تلك الليلة المشؤومة بأيام.

كان العمل بالفندق غاية في الإجهاد، لطالما ظننت ذلك، فالحفاظ على كل هذا البياض في وجود مدير صارم ومتذمر كالسيد كاسل ليس بالأمر الهين مهما كنت مولعًا بالتنظيف، لكن لم يبد الأمر كذلك بالنسبة لأمي ولا لمرة واحدة خلال السنوات الثلاث التي قضيناها بالفندق، فقد كان السيد كاسل معجبًا بأمي ويحاول التودد إليها، فهي أرملة شديدة الجمال.

كانت أمي كاميليا امرأة ثلاثينية جميلة كاسمها، لا يبدو عليها العمر، رشيقة ومرحة ومليئة بالنشاط، ربما لهذا السبب قبلها السيد كاسل للعمل دون أن يكون لها سابق خبرة، ولم يتوقف الأمر هنا، فقبل مرور سنة واحدة على عمل أمي بالفندق كلفها السيد كاسل بالغرف المهمة في الفندق أو ما يدعى بالسويت، وهما غرفتا الطابق الثالث، أكبر الغرف وأغلاها بالفندق، بعد أن قررت الموظفة المسؤولة عنهما ترك العمل بالفندق فجأة، لذا كانت أمي تحصل على راتب جيد للغاية، وربما لو كانت سياسة الفندق تسمح للموظفين بقبول البقشيش لكنا من الأغنياء.

كانت غرفتا الطابق الثالث تطلان على الشاطئ من شرفة كبيرة بمساحة الغرفة كلها، أما الغرفة فكانت بحجم 3 غرف من الطوابق التي تدنوها، بها بهوٌ وغرفة جلوس وغرفة طعام يحتلون المدخل، ثم غرفة نوم ضخمة ذات خزانة كبيرة ملأى بالأرفف، لطالما ظننت أنه يمكنني وضع أكثر من 200 قطعة ملابس

وعشرات الأحذية والإكسسوارات بها ولم تكن لتمتلئ، أما المرحاض فكان كمراحيض الملوك به مغطس كبير يدفع الماء من الجوانب يدعى بالجاكوزي، وتملأه الروائح العطرة التي تفرزها المعطرات والصابون متعدد الأنواع، وتلك الشموع الضخمة التي توجد هنا وهناك.

لطالما تمنيت أن أجرب هذا الجاكوزي لكن أمي كانت تمنعني. نسيت أن أعرفك، أُدعى نديم، كنت في السابعة عندما بدأت أمي العمل في ألبا، أما عندما وقع ذلك الحادث الذي غير حياتنا، فقد كنت على وشك أن أتم الحادية عشرة، لذا ثِق بي حين أخبرك أنني أتذكر جيدًا كل ما حدث خلال الأيام الأخيرة لنا في ذلك الفندق، وسوف أخبرك كل ما رأيت وسمعت كما لو كنت هناك معي.

***

كان يوم ثلاثاء قارس البرودة، الساعة الخامسة مساءً أوصلني السيد حامد إلى الفندق مع جليلة ابنة العم ماهر طباخ الفندق أو ما يدعونه بالشيف (الطباخ الرئيسي)، لذا كنت أنا وجليلة ابنته نعامَل معاملة خاصة من قبل السيد كاسل مدير الفندق الذي كان يتقبل وجودنا في فندقه في الأيام التي يعمل فيها والدانا لأوقات متأخرة، وحتى كنا نبيت ليالينا هناك، كنا ننتهي من المدرسة في الساعة الرابعة والنصف ثم ننتظر السيد حامد أحد سائقي الفندق ليصطحبنا إلى هناك في الخامسة، حيث يعد لنا العم ماهر طعامًا لذيذًا ونجلس لتناوله في المطبخ الضخم الخاص بالفندق، كانت جليلة تصغرني بعامين ولكنها لم تكن فتاة اجتماعية، لذا كانت تتبعني في كل مكان، أظن أنها كانت معجبة بي كثيرًا وربما كانت تكنُّ لي حبًّا لم تصارحني به قط، فقد كنا لا نزال طفلين صغيرين.

تناولنا طعامنا هذا المساء على عجل لأن العم ماهر كان مشغولًا بإعداد الطعام للزوار الجدد الذين كانوا على وشك الوصول، فقد حجز شخص ما الجناح الغربي في الطابق الثالث لعشرة أيام، كان ذلك أمرًا رائعًا، فقد كنا في فصل الشتاء حيث تكون أغلب غرف الفندق فارغة ويقل عدد نزلاء الفندق خاصة المهمين منهم ممن يطلبون حجز السويت، لذا لم أرَ أمي ليلتها سوى في وقت متأخر حين انتهت من تنظيف الغرفة للمرة الثانية هذا اليوم، وترتيبها لاستقبال رجل مهم ورفيقته، التي قالت عاملة الاستقبال «مَهَا» حين ذهبت لسؤالها عن الأمر، أن صوتها بدا مألوفًا وطلبت الغرفة الغربية على الخصوص وكأنها كانت قد نزلت بالفندق من قبل أو تعرفه جيدًا.

كان أمرًا عاديًّا أن يعرف رواد الفندق السابقين عن غرفه الكثير، لأن ديكور الغرف لا يتغير أبدًا، كل شيء يبدو كما هو نظيف ومرتب كما وُضع في أول يوم لهذا الفندق، على كل حال لطالما اعتقدت ذلك في نفسي.

كان الجميع متأهبين لوصول النزلاء وبخاصة السيد كاسل الذي بقيت عيناه معلقة بباب الفندق، وفي الوقت نفسه بكل تفصيلةٍ في الفندق ليبدو بأحسن حلته كالمعتاد، فقد كان يصرخ في الجميع لترتيب كل شيء مرة أخرى كأنهم لم يفعلوا ذلك.

كانت أمي في ذلك الوقت منهمكة في الغرفة، ففي العادة عندما يكون النزيل القادم سينزل بالسويت، على المسؤول عن الغرفة الانتظار حتى يُعلَم بوصول النزيل ليشعل الشموع ويعطِّر الغرفة ثم الانتظار أمام الباب حتى يصل النزلاء مع السيد كاسل.

دقت الساعة السابعة مساءً ووصلت سيارة سوداء طويلة قبل أن ينزل منها وجه مألوف للغاية متزين بابتسامة عريضة، كانت هي بلا شك «جيلان»، تلك الفتاة اللئيمة التي تحتل أمي مكانها في الفندق الآن، كانت المسؤولة عن غرف الطابق الثالث قبل أن تستقيل وترحل عن الفندق منذ عامين دون أن تُعلم أحدًا إلى أين أو لماذا ترحل. دخَلَت الفندق متأبطة ذراع رجل أربعيني يبدو عليه الثراء الفاحش، كانت جميع الأعين مثبتة على جيلان التي بدت مختلفة تمامًا عما عهدوها عليه، أما أنا فما شد انتباهي أكثر كانت تلك النظارة السوداء الكبيرة التي ارتداها ذلك الرجل الثري في السابعة مساءً، ليس ذلك فقط، بل والأدهى من ذلك أنني شعرت أنه يشبه أحدًا أعرفه.

دخلت جيلان متبخترة في مشيتها إلى مَها في الاستقبال وكأنها تقول: «انظري أين أصبحت وأنت لا تزالين كما أنت». بل قالتها بصوت مسموع وصل إلى جميع الآذان المتسمرة أمامها حين علا صوتها الناعم قائلة: «ما زال كل شيء كما كان تمامًا».

أما مرافقها فقد طلب من السائق الذي أحضرهما أن يُنزل الحقائب ويرحل إلى أن يطلبه مرة أخرى إذا ما طرأ أمر ما، واستقبله حامل الحقائب الخاص بالفندق، كانت 3 حقائب كبيرة ويبدو أنها كانت ثقيلة أيضًا، فقد حملها الساعي كمال على مهل إلى الصالة بالقرب من المصعد ثم عاد بجانب السيد حامد بالخارج.

قفز السيد كاسل الذي كان كتمثال حجري منذ لحظات ومد يده إلى النزيل الجديد ليستقبله بالترحاب ويأخذه إلى الصالة لتقديم مشروب الاستقبال، جلس النزلاء على الأريكة البيضاء المريحة يتناولون مشروبهم في استمتاع ويتحدثون إلى السيد كاسل، في حين حضر نزيل الغرفة 104 وابنته لتناول العشاء.

أما مها فكانت تهمس لنجلا عاملة البوفيه ومساعدة العم ماهر معبرة عن انزعاجها، والشرر يتطاير من عينيها تجاه جيلان التي كانت تنظر إليها في المقابل وتعلو وجهها ابتسامة هادئة لا تزيد مَها سوى غَيْرَة وحقد، قالت مها متذمرة بصوت منخفض: «ألم أخبرك سابقًا أنها فتاة لعوب كانت تحاول أن توقع

أحد الأغنياء ممن يقيمون بالسويت لتصبح نزيلة بالغرفة بدلًا من تنظيفها؟ لطالما توسدت ذلك الفراش حالمة أن يكون يومًا لها وهناك من يشرف على تنظيفه وترتيبه من بعدها».

فردَّت نجلا بلا مبالاة وهي تتبع بعينيها «علي» فتى الاستقبال المسائي الذي كان قد وصل لتسَلُّم مكانه بدلًا من مها، وقالت: «لا تهتمي لأمرها، لا أظنها أكثر من مجرد عشيقة يمنحها بعض المال وعطلات متقطعة في بعض الفنادق، هذا كل شيء، التفتي إلى عملك قبل أن ينتبه السيد كاسل ويعاقبنا حين يرحل النزلاء».

كنت أميل إلى فرضية نجلا أكثر في ذلك الوقت، فهي لم تكن تحمل أي مشاعر غَيْرَة تؤثر في رؤيتها للأمور، على النقيض من مها التي بدا عليها الانزعاج الشديد كبالون على وشك الانفجار، أما عِلي فكان جديدًا في الفندق ولا يفهم مما يجري شيئًا، لذا حملت مها على عاتقها مهمة إخباره كل شيء قبل رحيلها لانتهاء ورديتها.

بعد تناول النزلاء للعشاء، توجهت جيلان -ربما عليَّ أن أطلق عليها السيدة جيلان في هذا الوضع الجديد- إلى الكاونتر لتسجيل دخولهما الفندق، تناولت القلم الذي كان يحمله عِلي ووقعت باسم السيد طارق، يبدو أنه كان اسم ذلك الرجل الذي أتى معها، ثم قالت في خيلاء: «معذرة منكم، فالسيد طارق خرج للتو من عملية جراحية في العين، لذا لا يستطيع أن يأتي للتوقيع بنفسه، لقد وقعت من أجلك بدلًا عنه، أظن أننا على استعداد للصعود إلى الغرفة الآن».

قالتها وهي تمعن النظر في علي الذي تراه للمرة الأولى، وكأنها تحاول أن تقرأه بعينيها وتستكشف ما بداخل عقله، ثم رحلت متجاهلة ذلك الوجه الأحمر المحتقن الماكث أمامها، ولم يكن سوى وجه مها التي كانت تستعد للرحيل.

تصاعدت من فم الرجل آخر سحابة دُخَان بعد أن سحبها من سيجاره الذي يحمله في يده مشاركًا التدخين مع السيد كاسل الذي كان هو الآخر مدخنًا شرهًا، ربما بسبب كل هذا التوتر الذي يضع نفسه فيه، ثم وقف الرجلان ليلحقا بالسيدة جيلان ويتوجها إلى المصعد. أشار السيد كاسل بيده إلى عِلي الذي كان يعلم أن عليه الآن إجراء تلك المكالمة الهاتفية إلى أمي لتكون جاهزة لاستقبال النزلاء، تحرك كمال على عجل بأمر من السيد كاسل وأخذ الحقائب الثلاث إلى المصعد على مهل، فلم يكن قوي البنية بما يكفي، لا أعلم حتى لِمَ اختار هذه المهنة بالذات نظرًا إلى تكوينه البدني الهزيل، ثم عاد ليحمل الحقيبة التي لازمت يد السيد طارق طوال الوقت، فرفض الرجل مفضِّلًا بقاءها بقربه، كان الرجل يحمل حقيبة يد كبيرة سوداء كحقائب رجال الأعمال المعتادة التي حين تراها تعلم مما لا شك فيه أنها تحمل أوراقًا مهمة

خاصة بالعمل وكذلك الكثير من المال، وكان يرتدي معطفًا شتويًّا ثقيلًا وطويلًا يلف جسده الضخم وبنيته القوية على الرغْم من عمره. أما عن جيلان فكانت تحمل حقيبة سوداء تشبه حقيبة رفيقها في الماركة لكنها أصغر حجمًا لتطابق فستانها الأحمر الداكن المصنوع من القطيفة الثقيلة ويغطي بعض أجزائه الريش ومعطفها الأسود الطويل من فوق الفستان.

وقفنا جميعًا نشاهد المصعد وهو يختفي عن أنظارنا متجهًا إلى الطابق الثالث وكل الأعين تتبع الأرقام المضيئة على لوحته، كانت جليلة تنظر إلى وجهي ثم تنظر إلى حيث أنظر، وحين لم تفهم ما يحدث قالت بصوت سميك ينبع من داخل بطنها: «سأتوجه إلى المطبخ الآن لأشرب بعض العصير، هل تريد أنت أيضًا يا نديم؟». لم تكد لتنهي سؤالها الموجه إليَّ حتى خرج العم ماهر إلى الصالة ومعه نجلا يحملان في أيديهما إبريقًا كبيرًا صبَّا محتواه في بعض الكؤوس الموضوعة في البار الخاص بالصالة، ثم بصوته البشوش المحبب طلب منا العم ماهر جميعًا أن نأتي لتناولها.

ركضت جليلة إلى الصالة بسرعة ومن خلفها السيد حامد الذي كان يقف بباب الفندق ويبدو عليه النعاس، وفي اللحظة نفسها عاد المصعد ليصدر رنين وصوله إلى الطابق الأرضي، فتسمرت عيناي وعينا كل من مها وعلِي على باب المصعد الذي ما انفك أن انفتح ليخرج لنا محتواه، لم يكن سوى كمال حامل الحقائب عائدًا من الأعلى ويبدو عليه التعب، اتجه على الفور إلى البار هو الآخر في حين لحقت به مها ويعلو وجهها العديد من الأسئلة كمن على وشك إقامة استجواب، لم تهبط أمي بعد، كانت لا تزال في الأعلى مع السيد كاسل والنزلاء الذين أقاموا الدنيا في الفندق تلك الليلة وكل ما تلاها من ليالٍ حتى ذلك اليوم المشؤوم.

كانت الثامنة إلا ربع، عاد المصعد هذه المرة حاملًا السيد كاسل وأمي كاميليا، للمرة الأولى بدت أمي مرهقة للغاية، فكان السيد كاسل يتحدث إليها برقة ويمدح عملها الرائع في استقبال النزلاء، ورباطة جأشها حين رأت جيلان ولم تبد أي اندهاش أمام السيد طارق كما فعل باقي طاقم العمل الذين كادوا يفسدون كل شيء من وجهة نظره.

قضينا الليلة يومها في الصالة متسامرين حول أمور مختلفة بعد تناول العشاء حين عاد النزلاء لغرفهم، ورحلت مها على مضد تلك الليلة فقد كانت تخشى مما قد يفوتها، ولكن حديثها كان قد دفع السيد كاسل إلى تكرار تعليماته عدة مرات، حول وجوب معاملة السيدة جيلان باحترام كنزيلة مهمة وعدم التعامل معها بما قد يضايقها، أو يضايق السيد طارق، فالرجل يبدو معجبًا بالفندق كثيرًا، رغْم أنه لم ير الكثير بسبب عملية الليزر التي أجراها منذ قليل قبل وصوله إلى الفندق في مشفى قريب.

انتبهنا إلى الوقت متأخرًا، عاد عِلي لطاولته في الاستقبال ليكون في الشِّفت الليلي، ودخل غرفته برفقة كمال في الباحة الخارجية التي تحتوي على ملحق صغير ذي غرفتين، واحدة يقطنها السيد حامد حين لا تحمله قدماه للعودة للمنزل، والأخرى يتوسد سريرها كمال الشاب الأعزب الذي يعود لقريته في إجازات متقطعة، والذي كان يعتني مع السيد حامد بالباحة وكل متعلقاتها من كراسي وطاولات خارجية خاصة بالفندق، بالإضافة إلى وجود مخزن مجاور للملحق توضع به كراسي الشاطئ خلال فترة الشتاء التي لا تُستخدم فيها.

توجهت أنا وأمي إلى غرفتنا في الطابق الأرضي التي تقع بجوار المطبخ وغرفة العم ماهر وجليلة، في تلك الليلة لم يعد أحد من الشفت الليلي لمنزله، كانت ليلة هادئة بحق، بل وآخر ليلة هادئة شهدها الفندق...

في اليوم التالي استيقظت في الخامسة والنصف صباحًا، كانت أمي لا تزال تغط في نوم عميق بسبب الإرهاق، فتوجهت إلى المطبخ لرؤية العم ماهر الذي كان يبدأ عمله في الخامسة والنصف ليتمكن من إعداد طعام الفطور لنزلاء الفندق، حيث يُقدَّم الطعام بداية من السابعة صباحًا.

تفقد العم ماهر المبرد ليتحقق من وجود كل ما يحتاج إليه، التفت إليَّ حين دلفت من باب المطبخ وقال: «صباح الخير يا نديم». فرددت له التحية ثم سألني: «لمَ استيقظت مبكرًا هكذا؟».

لم أكن قد أخبرت أحدًا ما يدور بداخلي منذ أمس وسبب حيرتي، لكن علاقة الصداقة التي تربطني بالعم ماهر دفعتني لأخبره الأمر، فأجبته متسائلًا: «هل لاحظت شيئًا غريبًا أمس يا عمي؟». فأجابني بدهشة: «مثل ماذا يا صغيري؟».

توقفت قليلًا ثم أكملت: «ذلك الرجل، السيد طارق، ألا تظن أنه يشبه أحدًا نعرفه؟».

فكر العم ماهر قليلًا وهو ينظر إلى القدر الذي بدأ يعد به عجينًا لتحضير بعض الخبز الطازج ثم أجاب: «لأصدقك القول، أنا لم أخرج إلى الصالة حين وصل النزلاء، لكني نظرت لبعض الوقت حين خرجت نجلا لتقديم العصير الذي حضرناه أمس، لقد بدا الرجل غايةً في الغموض بنظارته السوداء الكبيرة، لم أرَ من وجهه الكثير لهذا السبب، ثم إن عودة جيلان قد صرفت أنظار الجميع إليها طوال الوقت، فلا أظن أن أحدًا انتبه إلى السيد طارق ليلة أمس، على أي حال سوف ينزلان بالفندق لعشرة أيام، إن كنت قد رأيته من قبل أو تعرفه فسيتضح ذلك في الأيام القادمة».

كان كلامه صحيحًا جدًّا، لم يكن أحدنا ليتعرف إليه بسهولة دون نظارته، ربما كنا نستطيع معرفته من رائحة سيجاره الثمين أو معطفه الفخم، ولكن بالطبع ليس وجهه، لكني كنت لا أزال أشعر بأني آلَف هذا الوجه.

انشغلت قليلًا في أفكاري فباغتني العم ماهر: «لا تُتعب عقلك الصغير بالتفكير في أمور غير مهمة، انتظرني قليلًا حتى أعدَّ الفطور لأضع لك بعضه».

وجدتني لحظتها أطرح عليه سؤالي التالي: «هل تظنه قد نزل بفندقنا من قبل وهكذا تعرفت إليه جيلان؟ ربما كان من نزلاء السويت المعتادين».

أجاب العم ماهر بثقة شغلت بالي مرة أخرى: «لا، لقد أخبر الرجل السيد كاسل أمس أن هذه هي المرة الأولى له في هذا الفندق، وحتى إنه لم ينزل بأي من فنادق هذه المنطقة من قبل، لقد كان اقتراح جيلان بعد أن حملته لإجراء عملية لتعيد نظره 6/6».

كان الأمر غريبًا، لماذا قد يرغب رجل أربعيني في إجراء عملية ليتخلى عن نظارة قراءته، فمن يهتم بهذه الأمور وهو قد تخطى الأربعين من العمر؟ أليست النظارة وقارًا لمن في مثل سنه وبخاصة إذا كان رجلَ أعمال ثريًّا كما يبدو عليه؟ كانت أفكاري تدور هنا وهناك وكان لدي شعور سيئ رافقني طوال ذلك اليوم والأيام التالية، أتعلم ماذا؟ كان شعوري في محله.

انشغل العم ماهر في صنع العجين وتقطيعه فلم أقاطعه مرة أخرى، لذا خرجت في صمت من المطبخ متجهًا إلى الصالة، كان عِلِي جالسًا على كرسيه خلف الطاولة الكبيرة الخاصة بالاستقبال وعيناه مفتوحتان، لكنني كنت أوقن أنه نائم بالرغْم من ذلك، فنظرته كانت كشبح باهت أو جثة بلا روح. هممت بالجلوس على أحد الكراسي المجاورة للبار حين لمحت شبحًا آخر يتحرك بجواري بخفة، فقفزت من مقعدي قبل أن ألمسه، وتنهدت براحة حين وجدتها جليلة، كانت قد استيقظت للتو وخرجت من غرفتها تفرك عينيها بقوة ثم تنظر إليَّ كطفل لا يستطيع التفريق بين ما إذا كان لا يزال على فراشه يحلم أو أنه قد خرج إلى الواقع، ربما كانت تراني في أحلامها أيضًا لهذا السبب وقفت أمامي وعيناها مثبتتان على وجهي.

تثاءبت بقوة قبل أن توجه كلماتها إليَّ: «هل أعد أبي الفطور بعد؟ أنا جائعة».

التفتُّ بعينيَّ عنها ثم أجبت بلا اهتمام: «ليس بعد، لقد طلب مني الانتظار قليلًا، ما زال الوقت مبكرًا على أي حال».

استمعتْ إلى كلماتي دون رد، ثم قفزت إلى الكرسي المجاور لي وأمسكت بكأس من الماء وأخذت تتناولها بنهم شديد، قبل أن تضع رأسها على طاولة البار الخشبية واستغرقت في النوم حتى كاد لعابها يتساقط عليها.

في السادسة والربع اتجهنا جميعًا إلى المطبخ لتناول الفطور، أنا وجليلة وأمي وعِلي الذي اضطررت إلى إيقاظه بصعوبة، ورافقنا السيد حامد وكمال ونجلا التي حضرت منذ قليل وأنهت طعامها على عجل لترُص الطعام في الصالة من أجل النزلاء.

أما السيد كاسل فكان يتناول طعامه في السابعة والنصف، لذا لا يخرج من غرفته التي في الطابق الثاني في هذا الوقت المبكر.

في الساعة السابعة كان العم ماهر ونجلا قد ملآ أقدار البوفيه في الصالة بالطعام ذي الرائحة الشهية وبدأ نزلاء الفندق القلائل في الحضور لتناول الفطور. كانت هناك لارا، تلك السيدة الصغيرة التي تعمل طبيبة منتدبة بالمستشفى القريب من الفندق، والتي قضت أسبوعًا في غرفة صغيرة بفندقنا حتى تنتهي فترة انتدابها القصيرة، كانت تبدو ابنة عائلة ميسورة الحال وطبيبة ماهرة، لذا أعتقد أنه لم يرقها النوم في غرف المستشفى وتناول طعامها ففضَّلت البقاء في الفندق بدلًا من ذلك، كانت تحضر لتناول الفطور مبكرًا في السابعة تمامًا، وأحيانًا تحضر إلى الصالة قبل ذلك ببعض الوقت ممسكة بأحد الكتب التي تدرسها بشغف بعينيها، ثم ترحل إلى عملها ولا تعود سوى في وقت متأخر ربما في العاشرة أو الحادية عشرة، يستقبلها عِلي ليعطيها مفتاح غرفتها ثم لا شك أنه يغط في سبات بعد ذلك.

كما ظهر نزيل الغرفة 401 وابنته، فقد كان يومهما الأخير بالفندق.

كنت أنا وجليلة في ذلك الوقت نتبع العم حامد إلى السيارة ليقلنا إلى المدرسة، وهكذا مر يومنا في الدراسة.

حين عدنا ليلتها في الخامسة مساءً، كانت مَها -التي وصلت في الثامنة صباحًا- كعادتها في مقعدها، وبجوارها نجلا تتهامسان مرة أخرى، يبدو أنه قد حدثت أمور جديدة. توجهت إلى المطبخ لأجد أمي هناك على غير العادة، فغالبًا ما تتفقد غرف السويت في هذا الوقت من اليوم للتأكد من وجود كل شيء أو لتجهيز المرحاض، أو لتنظيف الغرفة وتهويتها، لكن أمي أخبرتني يومها أنها لم تنظِّف الجناح الغربي بناءً على طلب النزلاء الذين بقوا في الغرفة أغلب اليوم، وطلبوا عدم وجود خدمة التنظيف خلال فترة إقامتهم أو إزعاجهم إلا في حالة طلبها بأنفسهم.

كان هذا غير معتاد، فمن لا يريد خدمة الغرف أن ترتب فراشه وتنظف المرحاض من أجله؟ لكن ليس غريبًا، فلكل نزيل بالفندق طابعه الخاص وطلباته المختلفة عن غيره.

ويبدو أن هذا الطلب الغريب قد جعل مها كمصاصة دماء متعطشة لرؤية فريستها، كنت أقف في مكان قريب من مكتب الاستقبال حين حضر عِلي بعد السابعة بقليل لتسلم مكانه، فأخبرته مها أن النزيل

في الطابق الأول وابنته قد رحلا هذا الصباح في الحادية عشرة، أما الطبيبة فلم تعد بعد من الخارج، ثم قالت بنبرة حاقدة إن السيد طارق وجيلان لم ينزلا صباحًا سوى في التاسعة لتناول الإفطار مما اضطر العم ماهر لإعداد طعام مخصوص من أجلهما، وزمت شفتيها مبدية استياءها، هذه المرة أرى أن معها حقًّا، فالفطور ينتهي في الثامنة والنصف في العادة، ثم أكملت أن النزيلين قد طلبا الغداء في غرفتهما في الرابعة وقضيا الليلة كلها بالغرفة منذ عادا لها صباحًا، وطلبا عدم الإزعاج، حيث إن جيلان قد أصابها الزكام وتشعر بالتعب الشديد، ثم أردفت بعد تقريرها المفصل: «لا بد من أن هذه الشمطاء كاذبة، فهي فقط تريد التواري عن الأنظار حتى لا يفضح أمرها».

كانت عينا مها تحملان الكثير من الكلام حول جيلان، وكان عِلي يرتب أغراضه على عجل تأهبًا للهروب، فجأة ظهرت جليلة بجوار كتفي اليسرى تنظر إلى حيث أنظر نحو الاستقبال، لقد أصابتني بالرعب للمرة الثانية اليوم، فهي تظهر فجأة بجواري طوال الوقت كالأشباح.

كانت تمسك بكوب كاكاو دافئ يتصاعد دخانه بقوة، ثم مدته إلى وجهي قائلة: «هذا لك يا نديم».

انتبهت مها إلى وجودنا بالجوار لثوان كانت كافية بالنسبة لعِلي ليدفن رأسه في الملف الذي أمامه ويتظاهر بالانشغال، فتحركت مها بتملل إلى باب الفندق نحو السيد حامد الجالس بجوار سيارته، لتحملها السيارة مبتعدة إلى بيتها، أما نحن أظن أنها كرهتنا في تلك اللحظة لإفساد حديثها المطول الذي كانت لا تزال ترغب في استكماله قبل المغادرة.

في الساعة السابعة والنصف، اتجه المصعد الذي كان في الطابق الأرضي وصعد إلى الثالث، فتوجهت إليه أعين عِلي والسيد كاسل الذي كان يجلس مع أمي في الصالة يتحدثان.

وكنت كذلك أتابع بعيني وأنا أحدق إلى كتبي جالسًا إلى طاولة في آخر الصالة مع جليلة لندرس، وصل المصعد وخرج منه السيد طارق بمفرده، ألقى التحية على الجميع برأسه في هدوء، كان لا يزال يرتدي نظارته السوداء، فقام إليه السيد كاسل عارضًا المساعدة وأخذه من ذراعه إلى إحدى الطاولات القريبة، فقد كان يبدو متخبطًا في مشيته حيث أوضح أن الضوء الشديد ما زال يزعج عينيه وأن الطبيب قد أخبره أنه يحتاج إلى ثلاثة أيام على الأقل حتى يعتاد.

أخرج الرجل سيجاره وأسند ظهره إلى الكرسي، ثم أظن أنه طلب من السيد كاسل إعداد العَشاء وإرساله إلى الغرفة من أجل رفيقته جيلان، فهي ليست بخير منذ الصباح.

أخذت أمي الطعام مع نجلا إلى غرفة جيلان التي أخبرتهما أنها قد أصيبت بالإنفلونزا بسبب الطقس وتحتاج إلى الراحة، أما السيد طارق فقد تناول عشاءه برفقة السيد كاسل ثم أمسك بإحدى المجلات

الخاصة بالفنادق وأخذ يقرأها، قبل أن يتشارك الحديث مع السيد كاسل مجددًا الذي عاد حاملًا كوبين من القهوة فاخرة الصنع التي ملأت رائحة بُنها البرازيلي المميزة المكان، فطلب السيد طارق تناوله في الخارج على الرغْم من برودة الطقس، فتوجه الرجلان إلى إحدى الطاولات الخارجية.

غلبني الفضول فتبعتهما بعض الوقت وخرجت من الفندق محاولًا الاقتراب قدر الإمكان عَلِّي أستطيع التقاط أي شيء من الحديث الذي بدا مهمًّا، لكن بالطبع كان هناك من أفسد عليَّ خطتي، فحين كنت أقف مختبئًا بجوار الباب على بعد خطوات من طاولة الرجلين، اصطدم بظهري جسد غفلة، فقفزت من مكاني وحاولت ألا أصدر صوتًا قدر الإمكان، كانت جليلة تتبعني مجددًا، همَّت أن تفتح فمها لتنطق، فأقفلته بيدي مرة أخرى ثم سحبتها إلى الداخل وعدت بها للطاولة حيث ندرس قائلًا: «أكملي درسك». ثم أعدت نظري إلى الكتاب وأنا أستشيط غضبًا.

بعد قرابة نصف ساعة، عاد السيد كاسل للداخل معللًا أن الجو غاية في البرودة، ولحق به النزيل بعد ذلك بنصف ساعة أخرى، توجه الرجل إلى المطبخ بشكل مفاجئ ليشكر السيد كاسل والعم ماهر وأمي على الاهتمام بهما، وعاد للمصعد بعد أن أخذ كمال بذراعه ليعيده لغرفته.

كانت ليلة ممطرة، تستطيع سماع صوت البرق والرعد في سمائها من تحت غطاء فراشك، لذا لليلة الثانية بات الجميع ليلته بالفندق، فلم يكن من الممكن الخروج في ليلة كهذه.

في الثانية عشرة ليلًا شعرت بتعب شديد، كان جسدي دافئًا وحلقي يؤلمني، فخرجت في هدوء من الغرفة حتى لا أوقظ أمي واتجهت إلى المطبخ، أخذت كأسًا من الماء ثم بحثت هنا وهناك حتى وجدت حبوب الدواء التي يعطيها لي العم ماهر حين أُصاب بالزكام، تناولت اثنتين ووضعت بعض الماء على رأسي لتهدأ حرارته، ثم بعينين ناعستين وجفنين ثقيلين خرجت عائدًا للغرفة، التفت برأسي إلى حيث يجلس عِلِي، كان الفتى مائلًا برأسه على الطاولة أمامه ويغط في نوم عميق، وفجأة قبل أن أعود أدراجي مبتعدًا سمعت صوت خطوات هادئة تهبط الدرج، كان ذلك غريبًا، ففي فندقنا لا أحد يستخدم تلك السلالم سوى أنا وجليلة وبعض الأطفال من نزلاء الفندق حين نرغب في اللعب، أما المصعد فكان شائع الاستخدام، لذا وقفت مكاني أمام باب المطبخ الجانبي وعيناي متوجهتان إلى الصالة وعِلِي، الذي كان نائمًا بما يكفي لئلا ينتبه، كان صوت المطر قويًّا لذا اعتقدت أنني أتوهم وربما أيضًا كان مرضي يؤثر في حواسي، لذا بعد دقيقتين من وقوفي قررت العودة للنوم، حينها فقط مر طيف مسرعٌ بالصالة نحو باب الفندق، لمحته وأنا أدور برأسي فعدت لمكاني واقتربت أكثر نحو الصالة، فُتح باب الفندق ووصل إليَّ صوت المطر بشكل أقوى من السابق ثم أقفل مرة أخرى على عجل، حدث الأمر بسرعة كافية لم توقظ عِلِي من سباته، كنت على وشك أن أقطع الصالة متجهًا نحو طاولة الاستقبال ليكون لدي رؤية جيدة لباب

الفندق، حين باغتني صوت خطوات أعادني للخلف مرة أخرى، كانت جيلان ترتدي منامتها الثقيلة وجوارب صوفية دون حذاء، اقتربت في خفة من طاولة عِلي ومدت يدها لتحصل على مفتاح إحدى الغرف الخاصة بالطابق الأول، ثم خلعت جواربها وعادت نحو الباب إلى حيث لا يمكنني أن أرى ما يحدث، بعد دقيقة عادت جيلان تركض حافية نحو الدرج وظهر خلفها رجل ضخم الجثة يرتدي معطفًا مبللًا ونظارة كبيرة، ومن فوق حذائه كانت جوارب جيلان، وتبعها إلى الدرج وصعدا كلاهما بعيدًا عن ناظري.

انتظرت عدة دقائق حتى تيقنت من عدم عودتهما ثم توجهت إلى الكاونتر وعيناي على الدرج، نظرتُ إلى عِلي ثم ألقيت نظرة على اللوحة خلفه، كان المفتاح المفقود هو للغرفة رقم 103، غرفة الطبيبة لارا التي بالطبع لم تعد الليلة للفندق بسبب الطقس وبقيت في المستشفى، كانت هناك بعض قطرات الماء على الأرض في الرواق لكن لا توجد أي بقع طين من حذاء الرجل، ربما بسبب ارتدائه جوارب جيلان السميكة فوق حذائه.

وقفت هناك لعشر دقائق كاملة، لم يكن بإمكاني سماع ما يحدث بالأعلى ولم أرَ شيئًا آخر ليلتها، بالرغْم من أنني قضيت الليلة على أريكة في الصالة حتى باغتني النعاس من شدة المرض وغفوت.

استيقظت قرابة السابعة والربع ذلك اليوم، والغريب أنني أتذكر جيدًا غفوتي في الصالة، لكني في الصباح وجدتني في فراشي مغطى بحرام سميك وفوق رأسي قطعة قماش مبللة وباردة، كانت جليلة تجلس بجانب السرير، وحين رأتني أفتح عيني، قالت على عجل: «لا تتحرك يا نديم أنت مريض، ونحن لن نذهب إلى المدرسة اليوم لأنك مريض وتحتاج إلى الراحة، هذا ما قاله أبي وأمك، بعد أن وجدك أبي هذا الصباح نائمًا في الصالة وأعادك إلى غرفتك ثم اعتنت والدتك بك منذ الصباح، سمح لها السيد كاسل بأخذ إجازة قصيرة والاعتناء بك حتى تتحسن».

رمت الكلمات بوجهي رميًا كأنها كانت تحفظها حتى أستيقظ فتلقي بها عليَّ، أما أنا اعتدلت في تثاقل لأجد أمي تدلف من باب الغرفة وبيدها حساء ساخن وبعض الخبز والدواء، تفقدتْ حرارتي ثم طلبت مني تناوله على مهل حين يبرد قليلًا ليساعدني على التحسن، بعدها طلبت من جليلة مساعدتي لأنها تحتاج إلى تنظيف السويت الغربي اليوم، حيث طلبت جيلان ذلك منها منذ قليل.

كانت الأمور العجيبة تحدث متسارعة جدًّا بالنسبة لرأسي الثقيل، خرجت أمي من الغرفة فتناولت حبوب الدواء على عجل وبعض الماء وقفزت خلفها من الفراش خارجًا، وصوت جليلة يتبعني ليثنيني عن الخروج.

نظرت إلى الصالة من الرواق الخاص بالمطبخ لأرى إحدى الحقائب الكبيرة التي أتى بها نزيلَا السويت أمام طاولة الاستقبال، وكانت جيلان تجلس في الصالة تتناول فطورها مع السيد طارق الذي كان لا يزال يرتدي نظارته، اقتربت قليلًا حتى سمعت ما كانا يتحدثان حوله، كان السيد طارق يطلب من جيلان أن تعتني بنفسها وتتصل به عندما تصل إلى المطار، ويخبرها أنه سيلحق بها بعد أسبوع حين تتم بعض الأمور الخاصة بشركته وينتهي من التوقيع على عقود العمل الجديدة، وكانت جيلان تؤكد على كلامه.

كانت جليلة تقف خلفي كالظل ولكنها لا تفهم ما يحدث، ليس هي فقط بل مثلها مثل الجميع، كانت جيلان تبدو بخير تمامًا كأنها لم يصبها مرض قط، بعد عدة دقائق وقفت الفتاة فجأة من مقعدها وتوجهت إلى البار، حيث يوجد إناء كبير من عصير الفواكه اللذيذ الذي يعده العم ماهر، لحقت بها نجلا لتضع لها منه فرفضت جيلان وأخبرتها أنها سوف تفعل هذا بنفسها، ليس فقط لها وللسيد طارق بل للجميع، لأنها سوف ترحل اليوم ونادت جميع الموجودين، مفسرة أنها تريد أن تضع العصير بيدها لكل الطاقم الموجود في الفندق كما كانت تفعل في السابق حين كانت تعمل هنا، تفاجأ جميع الواقفين، فلم يكن أيٌّ منا يعلم أن السيد طارق على علم بعملها في الفندق في السابق، جهزت جيلان كأسها وكأس السيد طارق وحملتهما إلى طاولتهما، ثم عادت للبار وأحضرت العديد من الكؤوس وملأتها ثم وضعتها على صينية كبيرة وتجولت بها بكل رشاقة لتتحقق من أن الجميع قد حصل على كأسه، كانت أمي قد انتهت من الغرفة وعادت للأسفل فناولتها جيلان كأسًا هي الأخرى، وهمست لها: «هل وضعت الكثير من الشموع المعطرة كما طلبت منك يا سيدة كاميليا؟». فهزت أمي رأسها مؤكدة: «نعم، الكثير». فابتسمت الفتاة وتوجهت إلى طاولتها، رفعت كأسها كمن يقترح نخبًا وتناولته، وهكذا فعل الطاقم أيضًا، ثم وقف السيد طارق من كرسيه وأوصلها إلى الباب حيث كان السائق الخاص به يقف في انتظارها، ورحلتْ، وبقيت أنا واقف هناك في وسط الصالة وجليلة تقف من خلفي تتناول آخر ما تبقى من العصير بنَهم.

لم يكن لديَّ ما يكفي من قوة لأعرف ما يجب فعله، باغتتني أمي وهي تسحبني من يدي عائدَين إلى غرفتنا حيث أعادتني إلى فراشي ثم أطعمتني بعض الحساء قبل أن ينتابها التعب فجأة وتخبرني أنها تشعر أن رأسها ثقيل وترغب في النوم لبعض الوقت، جلست بجواري حتى انتهيت من تناول الحساء وعندها وجدتها تسقط على سريرها نائمة كمن خُدِّر، نظرت إليها وهززتها برفق فوجدتها تغط في النوم. توجهت إلى الخارج مرة أخرى كانت جليلة أيضًا تضع رأسها على طاولة البار حيث تركتها ويسيل لعابها من شدة النوم، أما السيد كاسل والسيد طارق فلم يوجدا في الجوار لذا توقعت عودتهما لغرفتيهما، تثاءب عِلي بقوة خلف طاولته ثم وضع رأسه وغط في النوم سريعًا، وكمال يبدو أنه قد عاد للملحق ربما ليحصل على قيلولة هو أيضًا، كان هذا أمرًا غير معتاد في فندقنا، توجهت إلى الباب الخارجي

فلم أجد سيارة السيد حامد بالجوار، لا بد أنه ما زال في طريقه لإحضار مَها من بيتها، آه يا مها لو تعلمين كل ما يحدث، كان الأمر غريبًا، كان الجميع في سبات عميق، عدت للداخل لأنظر إلى اللوحة المعلقة بالاستقبال، فوجدت مفتاح غرفة الطبيبة لارا في مكانه ويبدو أنها لم تعد بعد من المستشفى، توقعت أن يكون العم ماهر نائمًا في مطبخه وكذلك نجلا وصح توقعي، عندها سمعت بعض الأصوات في الطابق العلوي، كان المصعد قد توقف آخر الأمر في الطابق الثاني، لم أتوجه إلى المصعد، بل حثتني قدماي على صعود الدرج بهدوء، وصلت إلى الطابق الأول فلم أجد شيئًا غريبًا، كانت الأصوات لا تزال بالأعلى، صعدت إلى الطابق الثاني فكان باب غرفة السيد كاسل مفتوحًا قليلًا، اقتربت من غرفته ونظرت، فوجدته نائمًا على مقعد خلف الباب، أظن أنه كان يحاول خلع حذائه حين باغته النوم مثله مثل الجميع، تحركت ببطء دون أن أصدر أي صوت نحو الطابق الثالث، وقفت بمنتصف السلم أنظر، وحينها رأيت كل ما أوْدَى بي إلى ما أنا عليه اليوم.

أجل يا صديقي، ما حدث قبل 10 سنوات هو السبب في حيث أكون الآن وكل ما حدث في حياتي من لحظتها، على أي حال انسَ أمري الآن ودعنا نكمل.

ما رأيته كان غريبًا للغاية، كان هناك رجلان لهما الهيئة الجسمانية نفسها يتشاجران، كنت أرى أحدهما بوضوح، كان السيد طارق بنظارته كما عهدته، وكان الرجل الآخر يجره جرًّا حتى باب الغرفة، وفي أثناء ذلك سقطت نظارته للمرة الأولى عن وجهه، حينها فقط علمت لِمَ كنت أشعر طوال الوقت أنني رأيته من قبل، كان يشبهه كثيرًا لو رأيته في أي مكان لظننته هو، زوج خالتي الثالث الذي انفصل عنها منذ أيام فقط ورحل من الفندق الذي يعمل به، من كان يظن أن يظهر فجأة بهذا المظهر الثري! ولكن مهلًا لحظة، لم يكن زوج خالتي يرتدي نظارة لكي يحتاج إلى عملية ما، هذا ما دار برأسي لحظتها لذا عندما دخل الرجلان معًا إلى الغرفة، اقتربت أكثر حتى وصلت إلى الباب الذي كان لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وقتها رأيت ما لم أكن أتوقعه قط، كان هناك اثنان، أجل اثنان من السيد طارق، أو تستطيع أن تقول اثنين من زوج خالتي السابق.

كانا متشابهين للغاية كتوأم، وقف أحدهما أمام الآخر وصرخ في وجهه: «هل تستطيع أن تراني بما يكفي لتعلم من أنا؟ ها أنا ذا أقف أمامك مرة أخرى بعد كل هذه السنوات التي تركتني بها أتخبط بمفردي دون أن تمد لي يد العون، حصلت على كل شيء كان حقًّا لي مثلما كان لك وتخليت عني».

باغتني شعور غريب بالنعاس، فتذكرت، أجل تذكرت للتو كيف وضعت لي جليلة بعضًا من العصير في فمي من كأسها التي كانت تتناولها قائلة: «إليك بعض العصير يا نديم، فلم يعد هناك المزيد منه في الوعاء».

كان آخر شيء سمعته حينها: «سأحصل على كل شيء كان لك، سيكون ملكًا لي، أما أنت يا طارق فسأتركك تتعفن كما فعلت معي منذ سنوات حين علمت بوجودي وكيف ألقى بي والدانا في ملجأ ليستطيعا الاعتناء بك لفقرهما، ولأنه أصبح لديك ما يكفي من المال والرفاهية لم تعترف بوجودي حين أتيتك مستجيرًا».

ليصيح السيد طارق بضعف: «توقف يا عادل، دعنا نتحدث...».

ربما كان تأثير المشروب قد استغرق المزيد من الوقت بسبب الدواء الذي تناولته الليلة السابقة وفي الصباح، لكنه ضربني فجأة فسقطت بجوار الباب لا حول لي ولا قوة.

لم أستفق يومها سوى في المساء، فتحت عيني لأرى المشهد نفسه، كانت جليلة تجلس بجوار فراشي تنظر إليَّ، ثم أخبرتني أن حرارتي قد ارتفعت وعليَّ البقاء في الفراش حتى أتحسن، بحثت بجواري لأجد ساعة يدي لأتفقد كم الساعة فكانت الخامسة، ثم سألت جليلة بانفعال: «هل وجدني العم ماهر في الصالة؟».

فأجابت باستغراب: «كان هذا في الصباح يا نديم، أما الآن نحن في المساء، لقد قضيت اليوم كله في الفراش».

سألتها بنفاد صبر: «ماذا تعنين بقضاء الليلة في الفراش؟ لقد كنت في الخارج، كنت في الطابق...».

توقفت فجأة وكانت هي تنظر إليَّ دون فهم؛ حينها دخلت أمي وفي يدها حساء ساخن وبعض الدواء مرة أخرى، وقالت: «ها أنت قد استيقظت أخيرًا، عليك تناول بعض الطعام، فقد استغرقت كثيرًا في النوم».

- أمي، هل كنت في فراشي طوال اليوم؟

- نعم يا بني، لقد وضعتك في فراشك بيدي ويبدو أننا استغرقنا في النوم لبعض الوقت، ليس نحن فقط، بل الجميع، فعندما وصلت مها وطاقم التنظيف الصباحي اضطروا إلى إيقاظ كل من نجلا والعم ماهر وعِلي، أما السيد كاسل فقال إنه قد حصل على قيلولة في غرفته هو الآخر، يبدو أننا جميعًا قد أصابنا برد الشتاء وصوت المطر بعدوى النوم.

ثم ضحكت ضحكة ناعمة، فانطلقت جليلة من العدم لتقول: «أنا أيضًا استغرقت في النوم لأكثر من ساعة على طاولة البار مرة أخرى، يبدو أنني أفضِّل النوم في هذا المكان كما كنت تخبرني يا نديم».

كنت أنظر إليهما في تعجب واضح، مسحت بيدي على رأسي للتحقق من أنني قد استفقت، ثم اندفعت من الفراش وأنا أوجه سؤالي: «أين السيد طارق، ماذا حدث له؟».

– إنه في غرفته، لقد طلب الغداء في الرابعة وأوصلته إليه بنفسي، لماذا تسأل فجأة؟

أجبت بنفس الاندفاع: «هل هو بخير؟ ألم يكن زوج خالتي في الغرفة؟».

علت نظرات الاستغراب وجهيهما، قبل أن تضحك أمي بنعومة وهي تعيدني إلى سريري ثم قالت: «يبدو أنك لا تزال متعبًا، لماذا تذكر زوج خالتك الآن؟ أخبرتك من قبل لقد رحل وانفصلا بالفعل، أعلم أنك تشعر بالحزن من أجل خالتك، لكن يبدو أن الأمور قد اختلطت عليك في أحلامك بسبب مرضك».

كنت أستمع إلى كلماتها وأهز رأسي، هل كنت حقًّا أحلم؟ ألم أخرج من غرفتي وأرى الجميع في سبات؟ ألم أرَ وجه السيد طارق الذي هو نفسه وجه زوج خالتي؟ ألم يتنازع الرجلان أمام عيني؟ هل كان كل ذلك محض حلم؟

جلست في فراشي محاولًا أن أهدئ من روعي، وبعد مرور ساعة من محاولتي استجماع أفكاري، في السادسة مساءً خرجت إلى الصالة، كانت لارا الطبيبة الشابة تدلف من باب الفندق عائدة لغرفتها، طلبت من مها أن ترسل العشاء في السابعة إلى غرفتها لأنها متعبة للغاية، ثم صعدت، اقتربت من باب المطبخ فسمعت حديثًا دار بين أمي والعم ماهر، كانت تخبره أمي بقلق أنها تظنني لست بخير مجددًا وربما أحتاج إلى رؤية طبيب مرة أخرى، لم يكن يبدو من حديثهما المحتدم أنهما كانا قلقَين بسبب بعض الزكام، شعرت أنهما قصدا شيئًا آخر، اتجهت إلى الصالة وجلستُ إلى الطاولة البعيدة وجلست جليلة بجواري وانشغلنا بأمور مختلفة، في السابعة والنصف نزل السيد طارق إلى الصالة لتناول العشاء، كان يرتدي الثياب نفسها التي ارتداها هذا الصباح ولم يبد عليه أيٌّ من آثار العراك الذي رأيته، جلس على المقعد نفسه الذي توسَّده ليلة أمس على العشاء وطلب من السيد كاسل الذي توجه إليه حين رؤيته أن يعدَّ له العشاء، حتى إنه طلب الأصناف نفسها التي طلبها أمس على العشاء أيضًا، أمسك بإحدى المجلات الموضوعة أمامه وأشعل سيجاره، كما فعل في الليلة السابقة، حتى إنني شعرت أنني أعيش اليوم نفسه مرة أخرى، حين عاد له السيد كاسل طلب منه الجلوس معه حتى يجهز العشاء، ثم وهو ينظر إلى إحدى صفحات المجلة وجه إليه بعض الأسئلة عن عمل الفنادق وكيفية سير الأمور، يبدو أن السيد كاسل قد فاجأه السؤال لسبب ما، تناول السيد طارق عشاءه تلك الليلة في هدوء، ثم شرب قهوته في الخارج بالرغْم من برودة الطقس مرة أخرى، ولم يبد عليه حين دلف إلى الفندق بعد ساعة أيٌّ من آثار المرض بسبب البرد، توجه إلى المطبخ وشكر الجميع تمامًا كما فعل بالأمس، ألقى نظرة على عِلي وهز رأسه محييًا كمال الحمال الذي أخذ بذراعه إلى المصعد ثم إلى غرفته.

عندما عاد كمال كانت عيناه متسعتين، توجهت إليه لسؤاله عن سبب شروده، فقال باستغراب: «لقد أوصلت الرجل إلى غرفته كما فعلت بالأمس فسألني عن اسمي رغم أنني أخبرته بالفعل ليلة أمس أن اسمي كمال، وحين أجبته أعاد على مسامعي الحديث نفسه الذي قاله لي بالسابق كأنه قد نسي أننا تحدثنا، هذا الرجل حقًّا غريب، يبدو أن كل الأثرياء غرباء».

اقترب منا السيد كاسل ويبدو أنه قد سمع بعضًا من حديثنا، فقال في شرود: «هل كان الرجل بخير يا كمال؟ يبدو أنه يجلس في البرد لساعات طوال مما قد أثر في صحته، لقد سألني عن الأمور نفسها التي تحدثنا عنها بالفعل الليلة الماضية، ربما يكون وحيدًا من يدري!».

ألقى بكلماته وهو لا ينظر إلينا كأنه كان يحدث نفسه بصوت عال، ثم رحل دون أن ينتظر ردًّا.

لحق به كمال ليخبره شيئًا ما يبدو أنه كان أمرًا مهمًّا، لكني لم أستطع معرفة ماذا كان بالضبط.

كان الجميع يتعامل وكأن الأمر طبيعيٌّ، لكن ما ليس طبيعيًّا حقًّا هو أنني تلك الليلة رأيت السيد طارق في غرفتي يقف بجوار فراشي في معطفه الأسود الضخم ونظارته السوداء متسمرًا كتمثال، وحين صرختُ من الرعب بما يكفي لإيقاظ أمي كان قد اختفى وكأنه شبح.

كان يوم الجمعة وكان الجو لا يزال ممطرًا وباردًا للغاية، في ذلك الصباح نزل السيد طارق في نفس موعده في اليومين السابقين لتناول الإفطار وشرب القهوة وسيجاره، دفعني فضولي إلى الاقتراب فجلست إلى طاولة قريبة منه، وبعد عدة دقائق وجدته يرفع رأسه وينظر إليَّ من خلف نظارته التي ما زالت تعلو وجهه، أثار ذلك رعبي لوهلة حين ظل نظره موجهًا إليَّ لعدة دقائق، ثم ابتسم محياه وتألق رغم ذلك اللون الأزرق الذي كان يغلف شفتيه من الداخل متجهًا إلى الخارج، والذي قد لاحظته في الحال حين ابتسم، كنت أوقن أن نظام التدفئة في الفندق جيد للغاية، لذا كان غريبًا أن يطال البرد جسده الضخم ليغير لونه هكذا إلى الأزرق.

بعد وقت قصير اقترب منه السيد كاسل الذي نزل للتو من غرفته وجلس بالقرب ليسأله عن أحواله، وما إن كان يشعر بالمرض بسبب البرد، فأجاب الرجل بصوت خفيض كمن يعاني لإخراج صوته: «بل أفضِّل البرد كثيرًا الآن».

ليجيبه السيد كاسل بقلق: «أردت فقط التأكد من أن نظام التدفئة في غرفتك يعمل بشكل جيد، وكذلك هناك أمر آخر، أخبرني كمال أنه قد رأى أحد أبواب شرفتك مفتوحًا طوال الليالي الماضية، فهل تجد صعوبة في التعامل معه؟ هل تود أن أرسل أحدًا إلى الغرفة لترتيبها وتدفئتها من أجلك؟».

ارتشف السيد طارق رشفة من قهوته التي تركها حتى بردت تمامًا ثم قال باقتضاب: «لا، أحب الدفء». ونهض عن كرسيه فجأة ونظر إليَّ مرة أخرى مما جعل قلبي ينبض بسرعة كبيرة ثم رحل إلى المصعد.

قفزت من مقعدي على الفور وصعدت الدرج بأقصى سرعتي محاولًا اللحاق بالمصعد، حين وصلت إلى الطابق الثالث كان المصعد قد وصل للتو فقد سمعت صوت رنين وصوله، وقفت على السلم لألتقط أنفاسي، وبينما كنت أنظر، فُتح الباب، ولكن لم يكن هناك أحد بالداخل، كان المصعد فارغًا تمامًا، ففكرت: «هل كان الرجل يختبئ بالداخل في أحد الأركان؟». لم أجد شيئًا في انعكاس المرآة، تحركت على مهل مقتربًا من المصعد الذي كان بابه مفتوحًا على غير العادة لفترة أطول مما يجب، كانت خطواتي حذرة جدًّا وكنت أسمع صوت قلبي في أذني كطنين متكرر لا يتوقف، بل يعلو صوته أكثر فأكثر، حين كنت على مسافة خطوتين من باب المصعد بدأ الباب يغلق مرة أخرى، وفي اللحظة نفسها سحبتني يد من الخلف بقوة أسقطتني إلى الوراء، كتمتُ صرختي ونظرتُ خلفي مسرعًا فرأيته يسير مبتعدًا عني نحو غرفته، وقبل أن يدلف إليها نظر إليَّ نظرة مطولة ثم دخل وأغلق الباب بقوةٍ ظننت أنها ستتسبب في تصدع الحائط وتحدث شرخًا بعرضه.

حين تمالكت نفسي مما حدث، وقفت وتحركت نحو الغرفة واقتربت من الباب على مهل ثم وضعت أذني محاولًا التقاط أي أصوات تأتي من الداخل، علِّي أستمع إلى شيء يؤكد مخاوفي وشكوكي، فقد كان لدي شك قوي أننا الآن نتحدث إلى عادل زوج خالتي وليس السيد طارق، فقد كانت محاولاته البائسة لتقليد شقيقه غاية في الغباء، تناول الطعام نفسه في الوقت نفسه وبالأسلوب نفسه كأنه يحاول أن يثبت شيئًا ما طوال الوقت، ثم إن وجوده في غرفتي الليلة الماضية يؤكد لي أنه قد رآني وربما أعادني إلى غرفتي، فمن غيره قد يفعل ذلك، فالجميع يظن أنني كنت بغرفتي طوال الوقت، نظراته الطويلة إليَّ، هل يشك بـأنني أعرف كل شيء؟ هل يحاول إخافتي لأبقى صامتًا؟ هل قتل أخاه وأخذ مكانه كما قال في تهديده؟ كان عقلي يدور ورأسي أيضًا من المرض، فتحركت نحو المصعد وأنا أشعر أن حرارة جسدي ترتفع بشدة بعد أن أيقنت أنني لن أستطيع سماع شيء مما يجري بالداخل، وصلت إلى المصعد وطلبت الطابق الأرضي، والتفتُّ لأجد باب الغرفة التي تركتها خلفي في آخر الرواق يُفتح مرة أخرى بقوة ويخرج منه جسد ضخم لا وجه له تحت نظارة سوداء كبيرة ويتجه نحوي بسرعة كطائر تدفعه الرياح، كاد أن يمسك بي لولا أنه وفي اللحظة الأخيرة أقفل باب المصعد قبل أن تصل يده إليَّ، سقطتُّ أرضًا من فرط الخوف داخل المصعد ولم أستفق سوى بعدها بمدة لأجد نفسي في غرفتي ويقف الجميع بجواري قلقين، في حين تتحسس فتاة معصمي ثم تضع جسمًا باردًا على صدري، فتجري في جسدي قشعريرة كافية

لتفيقني، كانت الطبيبة لارا ومن خلفها وقفت أمي والقلق بادٍ على وجهها وبجانبها جليلة ومها والعم ماهر.

علمت وقتها أن لارا كانت قد وجدتني في المصعد في طريقها إلى الأسفل، وساعدت العم ماهر وأمي اللذين كانا يبحثان عني لما يقرب من نصف ساعة في نقلي إلى غرفتي، كنت مريضًا جدًّا فأعطتني لارا بعض الدواء الذي ساعدني على النوم بعمق، عرفت كل ذلك عندما استيقظت ليلتها لأجد ذلك المحقن معلقًا بذراعي ويتدفق داخله سائل الجلوكوز وصولًا إلى جسدي، فقد كانت جليلة بجوار فراشي متحفزة للتحدث.

شعرت بتحسن ليلتها عن الأيام السابقة، فقد تناولت الطعام لأول مرة منذ مدة طويلة على ما يبدو، كما انخفضت حرارتي بفعل الحبوب والمحقن الذي نصحت به لارا، فخرجت في السابعة مساء إلى المطبخ لتناول الطعام مع الجميع ومحاولة تقفي ما حدث في أثناء نومي، عندها سمعت مها التي لم تكن قد رحلت بعد وعِلي الذي يبدو كمن وصل للتو يتحدثان إلى السيد كاسل، كان يخبرهما أن الطبيبة قد تحدثت إليه في الصباح، وأخبرته أن غرفتها قد سُرق منها بعض الحبوب المخدرة من الطاولة بجوار الفراش، وطلب منهما التأكد بسؤال عاملة التنظيف المسؤولة عن الأمر ربما كانت قد وجدتها وغيرت مكانها، فلم يُسرق شيء من فندقنا من قبل وهذا قد يضر بسمعة الفندق. قبل أن أسمع المزيد سحبتني يد إلى المطبخ، كانت جليلة مرة أخرى، التي أعلنت عن وجودي للعم ماهر وأمي ونجلا.

يا لها من فتاة كانت دائمًا ما تثير غضبي بتصرفاتها، لم أستطع أن أعلم عن الأمر أكثر، لكن ما وقع على مسامعي كان كافيًا لربط بعض الخيوط، سرقة مفتاح غرفة السيدة لارا ثم اختفاء الحبوب المخدرة ونوم كل من في الفندق في سبات بعد تناول العصير كما طلبت منهم جيلان في اليوم التالي لحضورها قبل أن ترحل عن الفندق تمامًا، يبدو أن جيلان لم تكن رفيقة السيد طارق وإنما عادل، كان هذا هو التفسير الوحيد الذي تبادر إلى ذهني لكل ما يحدث، ولكن ما حدث بعد ذلك لم تكن خيوطه تتجمع في رأسي بعد، مَن مِن الرجلين يسكن في الغرفة الآن؟ أم أن كليهما ما زالا هنا؟ وماذا حدث بينهما تلك الليلة؟ كل تلك الخيوط مقطوعة الوصال بالنسبة لعقلي.

ظل الأمر كذلك حتى الليلة الثالثة، كنت قد نمت كثيرًا فلم ينتبني النوم ليلتها وخف مرضي بعض الشيء، لذا في الحادية عشرة خرجت من غرفتي تاركًا أمي نائمة وتوجهت إلى الصالة، هذه المرة كان عِلي يتوسد أحد المقاعد المريحة وينام بعمق وفي يده كتاب كان يقرأه، اقتربت أكثر من مكتب الاستقبال، كان الدرج عن يميني وباب الفندق الخارجي عن يساري وبجواره المصعد، كان المصعد في الطابق الثاني مما يدل على أن آخر من صعد إلى غرفته هو السيد كاسل، أما مفتاح غرفة الطبيبة فكان في مكانه، يبدو أنها

لم تعد الليلة أيضًا، نظرت نحو الدرج لبعض الوقت محاولًا اتخاذ القرار، ثم عدت للوحة الاستقبال بنظري للحصول على مفتاح غرفة الطبيبة لاستكشافها، ولكن ما وقع بصري عليه جعل الشعر في جسدي يقف من موقعه، رأيت المفتاح 302 معلقًا على اللوحة وهو ما لم ألاحظه من قبل، كأنه لم يكن هناك منذ قليل بل ظهر من العدم، كان أول ما تبادر إلى ذهني أن الرجل أيًّا من كان قد رحل خِفية عن الفندق وترك لغزًا ما حدث في تلك الغرفة يؤرقني لبقية حياتي.

عزمت لحظتها على تفقد الغرفة، مددت يدي المرتعشة للحصول على المفتاح، وفي تلك اللحظة انتفض جسدي كله حين سمعت صوتًا قويًّا بالخلف، استدرت فلم أجد أحدًا في الصالة، كان عِلي ما زال نائمًا في مكانه كأنه لم يشعر بشيء، تجولت بنظري هنا وهناك حتى استنتجت بعد رؤيته على الأرض، كان كتاب عِلي قد سقط من يده أرضًا حين استغرق بشكل كلِّي في النوم، فعدت بنظري -وأنا أشهق لالتقاط أنفاسي- إلى المفتاح، كان لا يزال في مكانه لم يختفِ مرة أخرى كما ظهر، أخذته بسرعة ثم صعدت الدرج وصولًا إلى الغرفة وكلي حزم على كشف الأمور، كان عليَّ أن أفهم أولًا قبل أن أتحدث عما رأيته.

وضعت المفتاح في فتحة الباب وأدرته ببطء، فانفرج الباب مفتوحًا في ثوان دون أن أدفعه، كانت الغرفة مظلمة كقبو إلا من ضوء خافت يصلها من عمود الإنارة الخارجي عبر الشرفة المفتوحة، كان الهواء قويًّا وباردًا مما جعل الغرفة باردة أيضًا، باردة ومظلمة كالقبر، دخلت ويدي تتحسس الحائط بحثًا عن مفتاح الإضاءة، لم أكن لأتخيل أن أحدهم قد يسكن تلك المقبرة ولكنني سمعت صوتًا يأتي من غرفة النوم، كان الصوت يبدو كطرقات على الباب من الداخل، تخلت يدي عن البحث عن مفتاح الكهرباء الذي يبدو أنه قد ابتُلع داخل الحائط لسبب ما، أو ربما فقط ليزيد المشهد رعبًا، ثم توجهت مستندًا إلى الحائط نحو باب غرفة النوم، وحين اقتربت بما يكفي وضعت أذني على الباب من الخارج فعادت الطرقات مرة أخرى، ولكن يبدو أنها كانت تأتي هذه المرة من داخل الغرفة، ربما كان أحدهم يطرق باب الخزانة أو المرحاض، لم أكن لأعلم ذلك بالتحديد دون إلقاء نظرة، حين واتتني هذه الفكرة سمعت صوت طرقات أخرى ولكنها كانت تصدر من داخلي، كان نبضي يتسارع كعداء أولمبي انتهى من قطع عشرات الكيلومترات ركضًا للتو، أمسكت بمقبض الباب لوهلة ولكن لم تحملني يدي على إدارته، كنت أخشى من فكرة ما قد أجده بالداخل أو من قد أجده بالداخل، فعلا صوت طرقات على الباب ذاته فجأة جعلني أقفز للخلف، تركت المقبض وتراجعت قليلًا أكثر وعيناي مثبتتان على الباب، كان أحدهم يدير المقبض بقوة عدة مرات متتالية دون فتحه، كأنه عالق بالداخل بل سجين يود الفرار، لم يستوعب عقلي ذلك، فأبواب الفندق الداخلية ليس لها مفاتيح، بل مجرد مقابض يمكن فتحها وإغلاقها من الجهتين بسهولة.

ظللت أتراجع إلى الخلف أكثر فأكثر، ويرتفع مع خطواتي صوت الطرقات على الباب، ثم فجأة اختفت تمامًا، كنت بالقرب من باب السويت عندما أمسكت بمعصمي يدٌ وسحبتني إلى الخارج، فصرخت قبل أن ألتفت لأجد أمي تقف في الظلام، وتسألني في عجب: «ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟».

شعرت أن قدميَّ لا تحملانني وأن صوتي قد علق داخل حلقي ولا يمكنه الخروج، سحبتني أمي بعد أن أغلقت باب الغرفة الذي اختفى المفتاح المعلق به والذي وضعته بيدي منذ عدة دقائق، ونزلنا وهي تقول بهمس: «لنعد لغرفتنا ونتحدث عن ذلك في الصباح».

حينما عدنا للغرفة وضعتني في الفراش وتحسست حرارتي ثم قالت وعلامات الحزن بادية على وجهها: «تبدو بحالٍ أفضل، لماذا لا تستلقي الآن وتتناول هذا الدواء؟». ثم تردد صوتها قليلًا قبل أن تكمل: «هل تصيبك الهلاوس مرة أخرى يا نديم؟».

اتسعت عيناي لم أستطع التصديق، أمي تظنني أهلوس وهي لا تعلم بعد كل ما رأيت، ماذا سيظن بي الجميع حين أخبرهم ما أعتقده قد حدث؟

– اخلد إلى النوم الآن يا صغيري، كل شيء سيكون على ما يرام، فأنا معك، سأترك المصباح بجانبك مضاءً لا داعي للخوف الآن.

قالتها أمي ثم وضعت فوق جسدي المنتفض من البرد والرعب غطاءً ثقيلًا، وعادت لفراشها وعيناها لا تزالان تتفحصاني، خلدت إلى النوم على الفور بعد ذلك لكنه لم يتركني، زارني ليلتها في حلمي، كان يقف مرتديًا معطفه الضخم وتتساقط قطرات الماء من حوله وكأنه يمطر ماءً من كل جانب فيه، مد إليَّ ذراعه فابتعدت للخلف متوجسًا، فقال بصوت مخنوق: «ساعدني». قبل أن يرحل من أمامي كالشبح مرة أخرى لأستيقظ مبللًا بالعرق كأنها أمطرت فوق فراشي وليس بالخارج، سحبت الغطاء بعيدًا وهممت أن أضع قدميَّ أرضًا لكن الأرض تحتهما كانت تتحرك يمنة ويسرة، كأن هناك زلزالًا يضربها، ثم سمعت صوت خطوات ثابتة تقترب، نظرت حولي، لم أكن في غرفتي ولم يكن هذا فراشي، كنت في الغرفة 302 مرة أخرى، وكان عادل يتقدم نحوي وعلى وجهه ابتسامة مخيفة ويتطاير الشرر من عينيه، ثم فتح فمه وقال بصوت مبحوح كحية سامة: «أعلم أنك رأيت كل شيء، لكن من سيصدق طفلًا مريضًا مثلك؟». ثم امتدت يده لتلف عنقي وترفعني من فوق الفراش، لم أستطع التنفس، كدت أختنق بين أصابعه التي كانت تمتد أكثر لتلف جسدي النحيل.

قاطعنا صوت طرقات على الباب فنظر كلانا تجاهه، قبل أن تتركني يده فجأة لأسقط أرضًا، حين اصطدمت بالأرض بقوة فتحتُ عينيَّ، كنت أخيرًا في غرفتي وكانت جليلة تدخل من بابها، حين رأتني

أرضًا بجوار الفراش ضحكت في خبث قائلة: «عدت تتحرك في نومك من جديد».

نظرت إليها طويلًا حتى التقطت أنفاسي واستطاع صوتي الخروج من حلقي، ثم فاجأتها بكلماتي: «لقد أنقذت حياتي للتو، كنت على وشك الموت».

أردفت على عجل: «هل كنت تسير وأنت نائم بالأمس؟».

فسألتها باستغراب: «لماذا تقولين ذلك؟».

قالت: «سمعت أمك تخبر أبي أنك كنت بغرفة السيد طارق ليلًا، ثم أخبرها أبي أنك قد تحدثت إليه كثيرًا عن السيد طارق وأوضحت أنك تظن وجهه مألوفًا لك».

أجبت بعد أن انتابني الغضب الشديد: «وماذا في ذلك؟ لم أكن نائمًا، صعدت إلى هناك بإرادتي للتحقق من شيء».

تراجعتْ إلى الخلف قليلًا قبل أن تبتلع ريقها وتجيب: «اسمع يا نديم، لا أعلم ما الذي تريد التأكد منه، ولا أعلم عما تتحدث، لكن والدينا كانا يناقشان شأنك بشكل جاد، لذا أيًّا كان ما يحدث معك -إن كان حقًّا هناك ما حدث- فأشركني فيه قبل أن يزداد الأمر سوءًا بالنسبة لك».

قالت ذلك بغضب كمن يتوعد ثم رحلت، خرجت خلفها بسرعة لأفهم أكثر ما كانت تعنيه، فرأيتها تدخل المطبخ، وقفت بجوار الباب وسمعتها تتحدث إلى العم ماهر، قالت جليلة بصوت مخنوق يغلفه القلق والحزن: «متى سيحضر الطبيب؟». فأجابها الأب: «لاحقًا، خلال الأسبوع حين يتحسن الطقس ويستطيع السفر».

- لكن يا أبي ألا تظن أنها مبالغة، ربما يكون مريضًا لا أكثر مما شوش عقله قليلًا.

- لا تخافي يا جليلة، جميعنا نريد الاطمئنان عليه، هذا كل ما في الأمر، إن السيد كاسل قد أرسل لإحضار طبيب ممتاز، سيتحدث إليه حتى يستطيع تقديم المساعدة له، أريد منك الاعتناء به خلال هذه الفترة خاصة حين نكون منشغلين.

- بالطبع سأفعل، سأبقى دائمًا على مقربة لا تقلق.

كانت هذه المرة الأولى التي ألاحظ فيها الأمر، هل كنت حقًّا مخطئًا طوال الوقت؟ هل كانت جليلة تتبعني لتعتني بي وتبعدني عن المشكلات وليس لتفسد عليَّ الأمور؟ شعرت أنني فجأة أراها كملاك حارس بدلًا من شبح يزعجني بحضوره المفاجئ، لكن سرعان ما هززت رأسي لأخرج الفكرة منه ودار برأسي السؤال المهم: «عن أي طبيب يتحدثان؟».

مر اليوم سريعًا، لكن الغريب في الأمر أن الغرفة 302 لم تجرِ أي اتصال إلى الاستقبال ولم يجب أحد منها على الهاتف أيضًا طوال الصباح، كما لم يظهر السيد طارق يومها على الإطلاق.

زادت شكوكي وهواجسي ودار رأسي هنا وهناك، في حين كان الجميع يبتسم في وجهي بلطف ويعاملني بحذر غير مفهوم، باستثنائها هي، كانت جليلة ترمقني بغضب في كل مرة كنت أنوي على شيء وكأنها كانت تستطيع أن ترى ما بداخل رأسي، فكنت أعود لمقعدي في الصالة بهدوء، أما هي فجلست طوال الوقت ممسكة بقلم رصاص يتحرك بسرعة على ورق أصفر داكن في خفة وثقة، هممت أن أسألها ماذا تفعل ثم ثنيت نفسي عن الفكرة، فنظرت هي إليَّ شزرًا ثم رفعت أوراقها وقالت: «هل تريد أن ترى؟».

هززت رأسي بالإيجاب، فكشفت لي عن رسم لزهرة خلابة ذات أوراق عنقودية صغيرة، رسمتها بدقة تكاد معها أن تشعر أنك ترى الزهرة تنمو أمام عينيك.

ثم قالت: «إنها زهرة الليلك البنفسجية، ها أنت عليك أن تحاول».

وناولتني قلمًا وورقة من بين أوراقها، وأردفت: «إنه لأمر ممتع ويصرف الفكر عن أمور سيئة قد تدور فيه».

لم أفهم ما تعنيه مرة أخرى ولم أُرد سؤالها مباشرة عما سمعت هذا الصباح، لذا انتظرت سنوح فرصة مناسبة.

كان الجو يومها أفضل كثيرًا من الأيام السابقة، ولتمرير الوقت بشكل أسرع بدلًا من انتظار ظهور السيد طارق، خرجت أنا وجليلة بعد أن طلبت منها أن نتمشى معًا حول الفندق قليلًا، فوافقت على الفور، لا أعلم إن كانت تلك رغبة منها في السير معي أم لمراقبتي، ولكني استمتعت كثيرًا على غير العادة مما صرف عقلي لبعض الوقت عن كل ما حدث. أمضينا ساعة ممتعة نتحدث حول أمور مختلفة كطفلين طبيعيين، أو نرسم بعض الألعاب على الرمال ونلعبها، حتى قررتُ أن نلعب الغميضة، ذهبت للاختباء وطلبت منها البحث عني، كان أمامي خياران لا أكثر، إما الاختباء بالملحق أو داخل الفندق نفسه، لم تكن لتجدني بسهولة في أي من الموقعين، لكنني اخترت التوجه إلى الملحق ومنه إلى المخزن الجانبي، مرت عدة دقائق قبل أن أشعر بخطواتها متجهة إلى المخزن، كنت أظن أنها إن دخلت ستجدني بسهولة، لذا كان موقعي مناسبًا لتغييره، فقفزت عبر النافذة التي كنت أختبِئ بجوارها إلى الخارج مستندًا إلى حاويات القمامة الخضراء الضخمة الملتصقة بحائط المخزن من الجهة الخارجية، وما إن قفزت عنها إلى الأرض حتى أصدرت صوتًا عاليًا حيث كدت أسقط، فتأكدت أنها لا بد وقد سمعتْ صوتي وعلمتْ بموقعي، فاختبأت بين حاويتين وأنا أدعو ألا يُكتشف أمري بسهولة، حين كنت مختبئًا هناك لدقائق قصيرة رفعت

رأسي قليلًا إلى الأعلى لأستكشف أين هي، فرأيت شيئًا يتدلى من الحاوية، كانت هناك قطعة صوفية تتدلى من إحدى الحاويتين إلى الخارج، مما لفت انتباهي أنها قطعة صوفية حمراء تمامًا كشيء رأيته من قبل، خرجت من مخبئي وعينا جليلة اللتان اكتشفتا موقعي ترمقانني باستغراب، ثم قالت: «وجدتك على ما أظن!».

أما أنا فلم أهتم لخسارتي، رفعت غطاء حاوية القمامة وسحبت القطعة الصوفية الحمراء إلى الخارج وكانت كما اعتقدت، إنه الجورب الصوفي السميك ذاته الذي ارتدته جيلان وأعطته للرجل الذي تسلل إلى الداخل -عادل- كان مغطى بالوحل من داخله بسبب حذائه الذي اختلط ليلتها بالمطر والطين وترك أثر النعل بداخله، كنت أتفحصه كمحقق متمرس لأثبت صحة نظريتي التي كونتها ليلتها، قاطعت أفكاري كلمات جليلة متسائلة: «ما هذا؟ لِمَ تحدق إلى هذا الجورب المتسخ هكذا؟».

فنظرت إليها مطولًا قبل أن أقرر أخيرًا أن أخبرها كل شيء.

سحبتها من يدها إلى الداخل وتوجهنا إلى غرفتي، ثم قضيت نصف الساعة التالية أقص عليها الأحداث كما رأيتها بالضبط.

تنهدتْ بصوت عال حين انتهيت ثم نظرتْ إليَّ مطولًا قبل أن تتحدث أخيرًا: «حسنًا يا نديم أنا أصدقك، ولكن علينا أن نتحقق من عدة أمور قبل أن نخبر أحدًا».

أجبتها على الفور: «نعم أعلم ذلك، لذا لم أخبر أحدًا بالأمر بعد».

لتجيب هي: «لا يا نديم أنت لا تعلم، إذا كان ما رأيته صحيحًا فالأمر شديد الخطورة، يستدعي وجود الشرطة في الفندق والتحقيق مع الموجودين فيه، قد تكون جريمة قتل وانتحال شخصية، لذا أرجوك لا تفعل شيئًا من الآن وصاعدًا دون أن تخبرني».

كانت تتحدث بثقة وجدية طاغية مما جعلني أخضع لها في صمت.

سمعنا صوت همهمة يأتي من الخارج فتوجهنا كلانا تجاهه، وقفنا أمام باب الغرفة ونظراتنا موجهة نحو المطبخ، كان السيد كاسل هذه المرة يقف مع أمي والعم ماهر، ويتناقشون بالهمس حول أمر الغرفة 302.

كانوا يقترحون ما يجب فعله في حالة عدم ظهور السيد طارق من غرفته حتى المساء، كان السيد كاسل قلقًا من أن يكون قد حدث له أمر ما أو أصابه المرض، ولكن لا يمكنه إزعاج نزيل في غرفته فجأة بلا سبب، خاصة أن النزيل قد طلب عدم إزعاجه منذ قدومه في ليلته الأولى، وكان العم ماهر ينصحه بأن يحاول طرق الباب مرة أخرى في موعد العشاء وإن لم يُجب الرجل، فيجب الانتظار حتى الصباح التالي

لاستخدام المفتاح الثاني للغرفة وتفقدها، فربما قد يكون الرجل رحل مساءً لأمر ما دون أن يراه أحدنا وأبقى مفتاح الغرفة معه، عندها سيكون عيبًا أن يجد من فتح غرفته وتفقدها في غيابه، اتفق معه السيد كاسل في الرأي، فقد كان لغز ضياع حبوب الطبيبة من غرفتها ما زال قائمًا، وكان عليهم حل الأمور واحدًا تلو الآخر بهدوء حفاظًا على سمعة الفندق.

كانت أمي تقف في قلق منحنية الرأس كمن يشعر بالذنب، ربما شعرت أن ما يحدث كان بسبب وجودي في الغرفة ليلة أمس.

فجأة وجدت جليلة تركض من جانبي تجاه المطبخ ثم وقفت قليلًا في منتصف الممر، حتى نظر الجميع إليها باستغراب قبل أن تقول: «لماذا لا نتفقد المستشفى الذي أجرى فيه العملية؟ لربما ذهب لزيارة الطبيب كمراجعة».

انفرجتْ أسارير السيد كاسل وتهلل وجهه ثم قال: «معك حق يا جليلة، معك حق، لماذا لم أفكر في ذلك؟ سأذهب لأجري بعض المكالمات الهاتفية الآن». ثم قال وهو يتجه خارجًا نحو الاستقبال: «يا مها، أحضري لي دليل الهاتف، أحتاج إلى استخراج بعض الأرقام».

عدت بنظري بعد أن رحل السيد كاسل عن المشهد لأجد جميع الواقفين وقد انضمت إليهم نجلا ينظرون نحوي بقلق باد على وجوههم، قبل أن يقطع صوت جليلة الصمت: «ألم يحن وقت الغداء الآن؟». وتدخل المطبخ ونلحق بها جميعًا.

في المساء وبعد عدة محاولات، تمكن السيد كاسل أخيرًا من التحدث إلى الطبيب المسؤول عن عملية السيد طارق، لكنه قد أكد له أنه لم يأت لموعد المراجعة الذي كان من المفترض أن يكون ظهر اليوم، وأنه لم يهاتفه لتأجيل الموعد.

علمنا ذلك من السيد كاسل على العشاء وازداد قلق الجميع وشعورهم بأن في الأمر شيئًا، نظرت أنا وجليلة إلى بعضنا بعضًا خفية عن أعين الموجودين، ويبدو أننا عزمنا على الأمر نفسه معًا، كان علينا تقفي ما حدث.

اتفقنا ليلتها أن نلتقي في الساعة الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل، حيث كنت أعلم جيدًا أن عِلي سيكون قد غطَّ في النوم في ذلك الوقت، ونتوجه معًا إلى الغرفة 302. عاد كل منا لغرفته كالمعتاد، كنت أحاول ألا أغفو انتظارًا للموعد المحدد، فشغلت نفسي بقراءة كتاب على ضوء المصباح الجانبي، لكن يبدو أنني قد غلبني النعاس لمدة قصيرة، فقد استيقظت بعد قرابة نصف ساعة وأنا أشعر ببرد شديد، كنت ممددًا على الفراش في الظلام، تحسست مفتاح الضوء الخاص بالمصباح وأشعلته ونظرت حول

الغرفة، لم تكن أمي في فراشها، نظرت إلى الساعة كانت الحادية عشرة ونصف، إنه الموعد المتفق عليه لكن عليَّ أن أبحث عن أمي أولًا وإلا كُشف أمرنا، خرجت من الغرفة متجهًا إلى المرحاض ولكني لم أجدها هناك، اتجهت إلى المطبخ لتفقده ولم تكن هناك أيضًا، كان المكان باردًا للغاية في الخارج أكثر من غرفتي وكأن أحدهم قد نسي تشغيل نظام التدفئة، خرجت إلى الصالة، فلم أجد جليلة في انتظاري كما توقعت، لكن الغريب أن عِلي لم يكن في أي مكان، والأعجب أن باب الفندق كان مفتوحًا يندفع منه الهواء البارد اندفاعًا إلى الداخل، توجهت إلى الباب ودفعته بكل قوتي حتى أقفلته بإحكام.

ثم عدت للصالة ونظرت حولي في كل مكان قبل أن أتوجه إلى غرفة العم ماهر، طرقت الباب عدة طرقات هادئة فلم يجبني أحد، فأدرت المقبض ودفعت الباب قليلًا بما يكفي ليمر رأسي إلى الداخل لتفقد ما إذا كانت جليلة مستيقظة، ولكني لم أرَ شيئًا ففتحت الباب إلى نهايته ودخلت، لم يكن هناك أحد بالغرفة، كانت فارغة تمامًا، شعرت بأنني لا أفهم ما يحدث، أين ذهب الجميع؟ أمي والعم ماهر وجليلة وعِلي، أين هم؟

كنت لا أزال أقف بباب الغرفة حين سمعت صوت خطوات في الصالة، فعدت للخارج لأجد الصوت يتجه نحو الدرج، كان هناك الكثير من بقع الماء تملأ المكان بداية من باب الفندق مرورًا بمكتب الاستقبال ووصولًا إلى الدرج، تتبعت بقع الماء وصوت الخطوات وصولًا إلى الطابق الأول.

كان جسدي ينتفض بردًا ورعبًا، وقدماي لا تحملانني، ولكن شيئًا ما كان يسحبني لأكمل كما لو كنت فاقدًا السيطرة، وخاضعًا لقوى خفية تتحكم بي، فصعدت إلى الطابق الثاني، وكان صوت الخطوات يبتعد أكثر فأكثر إلى الأعلى وتمتد معه بقع الماء على الأرض، كان قلبي على وشك أن يقفز من مكانه وشعرت بالتعب الشديد، أردت أن أعود لغرفتي وأن تمسك أمي بيدي وتجلس جليلة بالقرب من فراشي، أردت أن يعدَّ لي العم ماهر طعامًا دافئًا، وأن أشعر بالطمأنينة، لكن عاد لي الشعور نفسه، وكأن هناك من يتحكم في جسدي وأفكاري ويجرني لأكمل، فصعدت إلى الأعلى خطوة تلو الأخرى حتى وصلت إلى الطابق الثالث.

كانت بقع الماء تمتد على طول الممر وصولًا إلى الجناح الغربي ولم يكن هناك أحد غيري في الممر، وقفت مستندًا إلى باب المصعد، أردت أن أضغط ذاك الزر الذي بقربي لكي يأخذني إلى الأسفل حتى أطلب من أحدهم المساعدة، أين أنت يا جليلة؟

سمعت صوت همهمة غير مفهومة يأتي من آخر الممر، يبدو أنه من داخل الغرفة، فاقتربت أكثر وأكثر محاولًا فهم ما يقال، اقتربت حتى وضعت أذني على الباب، عندها سمعت صوت صرخة مدوية تقول:

«نديم». كان صوت أمي، بدأت أطرق الباب وأركله بقوة دون جدوى وأنا أصرخ: «أمي أنا هنا، ماذا يحدث؟».

ليجيبني صوت جليلة: «اخرج يا نديم، اخرج أرجوك، لا تصدق أيًّا مما تراه، لا تستمع إلى صوت آخر غير صوتي، اخرج يا نديم».

توقفت عن الطرق والركل محاولًا استيعاب ماذا كانت تعني بأن أخرج، أخرج إلى أين؟

شعرت فجأة بهواء بارد قوي يصطدم بظهري فالتفتُّ نحو مصدره، لن تصدقني، لقد كانت الشرفة المفتوحة في الغرفة 302، كنت أقف في منتصف بَهْو الغرفة المظلمة الباردة كالقبر مرة أخرى، لا أعرف كيف دخلت إلى هنا، لقد كنت أطرق باب الغرفة من الخارج منذ قليل أليس كذلك؟

دار رأسي ولم أعد أفهم شيئًا مما يحدث، وقفت هناك كتمثال قد تجمد من البرد، ثم سمعت صوت أزيز باب يُفتح عن يساري، كان باب غرفة النوم، فتح الباب بمفرده وأصدر صوت أزيز مخيف وهو يتحرك إلى الخلف، ثم وصلت إليَّ رائحة قوية تملأ المكان، كانت رائحة الشموع المعطرة لا شك في ذلك، ولكنها كانت قوية للغاية كأنه قد استُخدم المئات منها.

جررت قدمي متجهًا إلى الغرفة التي كانت مرتبة كأن لم يمسها أحد لعدة أيام، بحثت بعيني في كل ركن حتى تيقنت من أنه لا أحد هنا، ثم أكملت طريقي حتى باب المرحاض من حيث تأتي الرائحة القوية، مددت يدي المرتعشة ودفعت الباب إلى الداخل، كانت الشموع تلف المكان وقد انطفأ أغلبها، ولكن رائحتها كانت لا تزال تخرج بقوة، دلفت إلى الداخل لتفقد المكان عن قرب، فطُرق الباب من خلفي بقوة، عدت نحوه محاولًا فتحه ممسكًا بالمقبض بكل قوتي، لكنه كان عالقًا وكأن هناك من أحكم إغلاقه، ثم من خلفي سمعت صوتًا غريبًا كصوت خرير ماء، فأدرت رأسي ببطء شديد تجاه الصوت حتى وصل نظري إليه، كان جسدًا ضخمًا بلا وجه يرتدي ملابس سوداء يخرج من بين ماء الجاكوزي في منتصف المرحاض ويتجه نحوي والماء يتساقط من حوله كأنه يمطر، كان هذا آخر ما رأيته قبل أن أصرخ بكل قوتي وأرتمي أرضًا فاقدًا للوعي.

الفصل الثالث

شبح

«أريد أن أحطم كل شيئًا، حتى يصبح هذا
الكل شيئًا يشبهني».

«عندما تأتين لزيارتي الليلة سأكون قد أنهيتها وستكونين أول من يقرأها، سوف أنتظرك».

كان ذلك آخر ما قاله لي قبل أن ينهي المكالمة، انتهيتُ من محاضراتي بكلية الفنون التي ارتدتها لإجادتي وشغفي بالرسم بعد أن شجعني كثيرًا على ذلك، وكنتُ في طريقي لإعداد حقيبتي والاتجاه إلى محطة القطار، كانت رحلة العودة لمدينتي تستغرق ساعتين، لذا كنت أعود مرة في نهاية الأسبوع لزيارته في المصحة وقضاء العطلة مع أبي، ليلتها وصلتُ في السادسة والنصف مع الغروب، اتجهت أولًا إلى المصحة حيث كان ينتظرني، كان قد انتهى من كتابة قصته الأولى كما أوضح لي على الهاتف، فقد كان يُسمح له بمكالمتين هاتفيتين يوميًّا يجري إحداهما معي كل مساء، لكن اليوم وصل إليَّ اتصاله ظهرًا، كان الحماس يبدو جليًّا في صوته، أراد نشر أول كتاب له ليحكي قصتنا التي لم يصدقها أحد سوانا خلال السنوات العشر الماضية. دلفتُ يومها من بوابة المصحة البعيدة وقطعت الحديقة إلى المبنى الثاني، وقفت بجوار الزهرة التي زرعناها معًا في الحديقة تحت شرفته، كانت زهرتنا المفضلة، زهرة الليلك البنفسجية الرقيقة، كان تأثير رؤيتها فيه جيدًا للغاية، خاصة مع عدم وجودي المستمر مؤخرًا بسبب انتقالي إلى مدينة بعيدة للالتحاق بالجامعة، هذا ما قاله الطبيب المعالج لحالته، لمست بأطراف أصابعي أوراق الزهرة اليانعة برفق، ثم وقفت لأتوجه نحو الدرج، لم تكد قدماي لتتحركا من مكانهما حتى سمعت صوت عراك يأتي من الأعلى، رفعت رأسي لأطالع الشرفة التي كانت مفتوحة حين رأيت جسده يهوي إلى الأسفل من الطابق الثالث، ثم ارتطم بالأرض بقوة وسرعة جعلتني أشل في مكاني ولا أقوى على الحركة، وقفت هناك بعينين شاخصتين أنظر إلى ذلك الجسد الذي سالت دماؤه فوق الزهور البنفسجية التي تحولت للتو إلى حمراء.

***

كان ذلك ما تبقى لي من طفولتي كلها، بعض الأوراق خطتها يد نديم تحت عنوان «ألبا»، الفندق الذي التقينا به ورحلنا عنه وقد تغيرت حياتنا إلى الأبد، كانت الكتابة هي الشيء الوحيد الذي أصبح نديم شغوفًا به، بعد الصدمة التي تلقاها بموت أبيه في حادث سير أمامه وهو طفل صغير، والذي حدث قبل عام واحد من وصوله مع أمه إلى الفندق، لطالما كان ذا خيال واسع مليء بالمغامرات والقصص، كان يقضي يومه بصورة طبيعية، أما في الليل فكان يرى الكثير من الكوابيس، وفي بعض الليالي كان يسير في نومه، كنت دائمًا ما أراقبه لأعتني به حين نكون في المدرسة أو في الفندق، كنت أشعر أنني أزعجه في كثير من الأحيان لكن لم أكن أهتم، أردت فقط التأكد من أنه بخير.

في تلك الليلة المشؤومة كنت على موعد مع نديم في الحادية عشرة والنصف لاستكشاف أمر الغرفة 302 والتأكد مما إذا كان ما رآه نديم حقيقة أم أنها بعض من هلاوسه مرة أخرى، غفوت لبعض الوقت وحين استيقظت كانت الساعة قد تخطت موعدنا بثلاث دقائق، فزعت وقفزت من فراشي إلى الخارج لكنه لم يكن في الصالة، تفحصت المطبخ قبل أن أتوجه إلى غرفته لتفقدها، لم يكن في فراشه أيضًا، لكن يبدو أن العمة كاميليا قد شعرت بوجودي، وعلى ضوء المصباح الذي يتوسط الغرفة نادتني قبل أن أستطيع الهروب إلى الخارج: «أنت هنا يا جليلة، أين نديم؟».

- إنه في الخارج، سوف أذهب إليه الآن.

- انتظريني، سوف آتي معك.

- لا داعي لذلك، كل شيء على ما يرام.

خرجت وخرجت المرأة خلفي على الفور، لم يكن من السهل إقناعها -بعد تلك الأحداث الأخيرة- أن لا شيء غريبٌ يحدث، الحاسة السادسة للأم على ما أظن، خرجت كلتانا تبحث في كل مكان في الصالة دون أن نجده، أيقظتُ عِلِي لسؤاله، ولكن كان جليًّا أنه استغرق في النوم منذ مدة طويلة ولم يشعر بأي شيء.

وقفت في وسط الصالة والخوف بادٍ على وجهي، فسألتني العمة كاميليا: «ماذا هناك يا جليلة، أين نديم؟».

- أظن أنه في الغرفة بالفعل.

- أي غرفة؟

- الغرفة 302.

ركض ثلاثتنا على الدرج صعودًا إلى الطابق الثالث، ثم خلال الممر وصولًا إلى الغرفة التي كان بابها موصدًا، نادت العمة كاميليا في قلق: «نديم».

فأتانا صوته من خلف الباب في ضعف قبل أن تتوالى طرقاته وركلاته على الباب كما لو كان عالقًا في الداخل، انتابنا الرعب جميعًا وحاولنا فتح الباب، وطلبت منه أن يحاول الخروج من هناك.

في حين أخذ عِلِي المصعد إلى الأسفل ليحضر مفتاح الغرفة الإضافي لفتح الباب، بعد عدة دقائق كان السيد كاسل وأبي الذي لحق بعِلِي إلى الأعلى يقفان بجوارنا أمام الباب.

فتح علي الباب ودخلنا جميعًا الغرفة، كانت الشرفة مفتوحة ويتدافع الهواء البارد منها دفعًا حتى يكاد جسدك يتجمد للوهلة الأولى، وقبل أن يسعفنا الوقت سمعنا صرخة ضعيفة تصدر من الغرفة الداخلية،

ركضت العمة كاميليا وأنا من خلفها إلى الداخل، في حين وقف البقية في الصالة يغلقون الشرفة ويشعلون الضوء لاستكشاف طريقهم، وقفت في غرفة النوم أنظر حولي لكنها كانت مرتبة ولم يكن نديم في أي مكان، في حين اندفعت العمة نحو باب المرحاض، فتحت الباب وكان هناك ما يعوقه بالخلف، فاستخدمت جسدها كله لدفعه، وحين استطاعت الدخول أخيرًا، وجدتْ نديم ملقى على الأرض غائبًا عن الوعي ورائحة معطرة قوية تملأ المكان، حملته بين ذراعيها وساعدها أبي لوضعه على الفراش في غرفة النوم، ثم عادت للحمام لإحضار منشفة من أجله، فقد ابتلت ملابسه للغاية وبرد جسده النحيل، وحينها سمعنا صرختها تأتي من المرحاض، لم أر وقتها ماذا كان بالداخل، فأنا كنت مجرد طفلة مُنعَت من الدخول لرؤية هذا المشهد، ولكني أتذكر جيدًا ما قصته العمة كاميليا على الشرطي حين وصل في الصباح التالي، وما قاله الطبيب الشرعي الذي فحص الجثة.

حين دخلتْ العمة إلى المرحاض كان هناك جسدٌ ضخمٌ يطفو فوق الماء بملابسه، استطاعت من هيئته أن تتأكد أنه السيد طارق، فقد كان بمعطفه المعتاد نفسه، سابحًا داخل الجاكوزي.

حين نُقلت الجثة والأدلة الموجودة في الغرفة، صدر تقرير الطبيب الشرعي بأن السيد طارق قد توفي بسبب اصطدام رأسه بشيء صلب أفقده الوعي، يبدو أنه كان يُعد الجاكوزي لنفسه حين انزلقت قدمه وسقط في الداخل بملابسه ثم مات غرقًا في مياهه، وحدد الطبيب وقت الوفاة ما بين صباح الخميس إلى صباح الجمعة.

كان تقرير الطبيب مخالفًا لأي من الشهادات التي حصلت عليها الشرطة من أفواهنا، والتي تؤكد رؤيتنا للسيد طارق ليلة الجمعة على العشاء، بل وتحدث أكثر من شخص في الفندق إليه، فكيف يمكن أن يكون الرجل قد مات قبل ذلك؟

مرت ثلاثة أيام من التحقيقات وعُرض نديم على الطبيب النفسي، وحين كانت الشرطة في انتظار تقرير الطب النفسي، استجوبت نديم الذي أخبرهم كل ما رآه منذ لحظة وصول الرجل ورفيقته إلى الفندق، وتسللها في الليل مع عادل زوج خالته، وسرقتهما لحبوب المخدر من غرفة الطبيبة، وحتى الشجار بين الرجلين عادل وطارق الذي أكد وجه الشبه بينهما. أما أنا وحين استُجوبت للتأكيد على روايته، فقد دللتهم على مكان الجورب المذكور في قصته، وأكدت الطبيبة ضياع حبوبها من غرفتها.

لكن بعد ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان، أُخذت عينات من كل شخص وكل زاوية بالفندق، وتم التواصل مع عادل زوج الخالة السابق والتأكد من وجوده خارج البلاد من أجل العمل وكذلك جيلان، أما عن السيد طارق، فلم يكن له أشقاء أو عائلة، رغم تأكد الشرطة من وجود شبه كبير بينه وبين عادل،

الذي تتبعت الشرطة ماضيه وصولًا إلى الملجأ الذي نشأ فيه. إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لإثبات أي شيء، فقد كان الرجل زوج خالة نديم وربما قد سمع الفتى عن الأمر في إحدى الجلسات العائلية، كما أن الجورب لم يكن كافيًا لإثبات أي شيء، أما عن رؤيتنا للسيد طارق خلال يومي الخميس والجمعة، فقد كانت حادثة دفعت بالشرطة إلى إجراء بعض التحاليل لكل من بالفندق، لتجد بعينات الدم بعض آثار المخدر الذي هو تمامًا ما فُقد من غرفة الطبيبة، والذي أوضح الطاقم الطبي فيما بعد أنه لا بد كان السبب في حدوث بعض الهلاوس لطاقم الفندق في الأيام التالية، مع مرور الوقت كان جميع من بالفندق مقتنعين أن من رأوه خلال الليلتين الأخيرتين لم يكن سوى شبح السيد طارق يجول بالفندق. بقِي نديم في المستشفى تحت رعاية الدكتور أيمن، الذي أصدر تقريره بعد أسبوع بأن حالة نديم هي ذهان متقدم حدث بسبب صدمة تعرض لها في طفولته ونقل بعد ذلك إلى المصحة للعلاج. بعد تشخيص مرض نديم، توقف التحقيق في قضية الغرفة 302 كقضية قتل أو انتقام، وأكدت التحقيقات أن الرجل قد انزلق ومات دون تدخل من أحد، أما الشموع المعطرة وهواء الشرفة البارد مع وجود الجثة بالماء، فقد ساعد كل ذلك على عدم اكتشاف الجثة في وقت مبكر بسبب تعفنها.

كان الرجل قبل قدومه إلى الفندق بعدة أيام، قد اتفق على شراء فندق عريق ونقل الملكية باسم جيلان كهدية زواج لهما، وباع كل شركته وأملاكه لينتقل معها إلى الخارج.

لذا لم تجد الشرطة أي أملاك يمكن التحصل عليها سوى بعض المال في أحد البنوك، والذي تُبرِّع به بعد موت الرجل.

أغلقت القضية وعاد الفندق للعمل بعد شهر من التوقف، ولكن لم يعد نديم ولا العمة كاميليا بعد ذلك قط، ظلت العلاقة بيننا كما هي، فقد كنت أزور نديم ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، كان في البداية يكرر على مسامعي القصة نفسها، ويقسم إنه لم يكن متوهمًا وأنه يعلم ما رأى وسمع وكنت أصدقه، كنت أنا فقط من صدقه طوال الوقت، فقد رأيت بعيني الجورب الصوفي الملطخ بالوحل، كما رأيت شيئًا آخر لم يره نديم ولم يلحظه أحد غيري، حقيبة اليد الخاصة بجيلان التي رحلت بها يوم سفرها، لم تكن سوى حقيبة السيد طارق نفسه وليست حقيبتها، فقد كانت الحقيبتان من الماركة نفسها لكن اختلاف الحجم بينهما كان جليًّا بما يكفي لي، والدليل حين فُتشت غرفة الرجل بعد اكتشاف جثته، لم يجدوا أوراقًا مهمة أو أوراقًا نقدية في أي من حقائبه، كما ظل دفتر شيكاته مفقودًا.

لم يكن أحد ليصدق طفلين صغيرين، أحدهما مريض نفسي يتوهم الكثير من الأمور، وأنا كنت فقط في التاسعة من عمري، لذا طلبت من نديم ألا يذكر الأمر مجددًا أبدًا حتى يخرج من هنا، لكن يا له من عنيد...

***

قضى نديم السنوات العشر الأخيرة له في مصحة للعلاج النفسي تحت رعاية الطبيب أيمن الذي شخَّص حالته من البداية، لم يكن يروقني كثيرًا، ولكنه كان طبيبًا ذا صيت كبير، وكان نديم قد نُقل إلى غرفته الخاصة منذ مدة حيث كانت حالته تتحسن كثيرًا، لم تعد تُواتيه أي كوابيس ليلية عن طارق أو عادل أو جيلان، ولم يكن يتوهم أحداثًا غريبة أو يرى أشخاصًا تراقبه، كنت أشعر أنه عما قريب سيخرج من هذا المكان ونعود لحياتنا الطبيعية في الخارج، لكن كان القدر يرسم لنا نهاية مختلفة تمامًا.

فها أنا أقف بعد السنوات العشر في حين يرقد هو أمامي أرضًا من دون حركة، عدت لوعيي بعد لحظات من الصدمة ثم سقطت على ركبتي بقربه وأنا أصرخ: «نديم، استفق يا نديم أرجوك». حملت رأسه الذي يتفجر منه الدم بين ذراعي وأسندت جسده إلى فخذي، ثم صرخت مرة أخرى طلبًا للنجدة، رفعت رأسي إلى الأعلى فرأيته، كان الدكتور أيمن يجر جسدًا ما مبتعدًا عن الشرفة، ألقى نظرة إلى الأسفل فالتقت نظراتنا ثم اتجه إلى الداخل، بعد نصف ساعة كنت أجلس بجوار جسد نديم الذي أعلن الطبيب الشرعي في المصحة عن توقيت وفاته في السابعة إلا ربع، وكتب في تقريره أن السبب كان السقوط من شرفة غرفته في الطابق الثالث مما أدى إلى تحطم جمجمته من الخلف ونزيف داخلي أودى بحياته على الفور، ربع ساعة أخرى، وكانت العمة كاميليا تركض نحو الغرفة حيث نكون وهي لا تستطيع التماسك ويجر أبي قدميه خلفها، حين رأيتهما انهرت من فوري في بكاء شديد شاركاني فيه...

رأيته من خلال الجزء الزجاجي لباب الغرفة، كان الدكتور أيمن يتحدث إلى الطبيب البشري بالخارج، تركت العجوزين المنهارين في البكاء وخرجت، كان يمشي مبتعدًا فلحقت به على بعد خطوات، حتى دخل المصعد متجهًا إلى غرفته، أخذت المصعد المجاور ولحقت به حتى مكتبه، طرقت الباب ودخلت على الفور دون انتظار إجابة، شخصت عينيه حين رآني أدخل والغضب باد على وجهي، قال متلعثمًا: «جليلة، تعازيَّ الخالصة، إنه لأمر محزن للغاية ما حدث لنديم».

قاطعته بحدة غير عابئة بأي هراء قد يخرج من فمه: «لقد قتلته، لقد قتلت نديم».

ارتعب الرجل وسرَت في جسده قشعريرة كنت أستطيع الشعور بها من خلال المكتب الواقع بيننا قبل أن ينطق: «لا يا جليلة لست أنا من فعل، إنه خطأ، خطأ غير مقصود، سأخبرك كل شيء».

قلت بغضب أكبر وكأنني أصرخ: «لا أريدك أن تخبرني شيئًا، لقد قتلته، هذا ما حدث، مات نديم بسبب إهمالك، سوف أودعك في السجن لتدفع ثمن فعلتك».

– لكنني لم أفعل شيئًا، أقسم لك.

– هذا بالضبط سبب موت نديم، أنت لم تفعل شيئًا لمنع ذلك، لقد أخبرك لأكثر من مرة خلال الشهر الأخير، وطلبتُ منك بنفسي في زيارتي الأخيرة أن تنقل مريضك الجديد ياسين بعيدًا عنه، أخبرناك عدة مرات أن الفتى يُشعره بالخطر وحاول إقناعه بالقفز معه من النافذة عدة مرات ليركبا بساطًا سحريًّا معًا، أو أيًّا ما كان الفتى يتوهم، وماذا فعلت أنت؟ أوصدت النوافذ في غرفة الفتى لكنك لم تبعده عن نديم، لم تحمِهِ من مريض متوهم، انظر إلى ما حدث بسبب إهمالك، سأقاضيك لقتل نديم، لن أتركك أبدًا.

قذفت الكلمات بوجهه ثم خرجت على الفور كإعصار دون الاهتمام بما لديه لقوله، بعد بعض الوقت وصلت سيارة الشرطة إلى المصحة، وفي حين وقف أبي والعمة كاميليا في حيرة من أمرهما، وقد أكل الحزن قلبيهما، أسرعت إلى المحقق واتهمت الطبيب أيمن المسؤول عن حالة نديم بقتله.

في اليوم التالي، أقمنا الجنازة في الصباح، كان الجميع هنا مرة أخرى، مها وعلي ونجلا وحتى كمال والسيد حامد، كان الحزن يعصف بنا عصفًا لانزلاق فتانا الصغير من بين أيدينا مرتين، أما السيد كاسل فقد رأيته من بعيد، وقف خلف إحدى الأشجار مختبئًا كمن يشعر بالذنب، ولم يكشف عن مكانه إلا عندما سقطت الأم المسكينة أرضًا ونقلوها إلى المستشفى، أما أنا فتوجهت بطلب من قسم الشرطة إلى هناك لفتح تحقيق، قصصت على الشرطي كل ما حدث خلال الشهر الأخير مع نديم والذي أدى إلى المأساة التي وقعت الليلة الماضية، وأكد المرض المسؤول عن غرفتَي كل من نديم وياسين على كلامي. استُدعى الطبيب أيمن بعد ذلك، وكُتب في التحقيق أنه خرج من مكتبه المواجه لغرفة الصبيين بعد أن سمع صوت شجارٍ، وحين تيقن من أن الصوت يأتي من غرفة نديم، حاول الدخول لكن الباب كان موصدًا، وحين علا صوت الشجار حاول دفعه بقوة أكبر حتى انفتح الباب، ليجد ياسين يقف بالقرب من الشرفة المفتوحة بغرفة نديم ويحاول تسلقها، فثناه عن ذلك وسحبه إلى الخلف، وحين نظر إلى الأسفل كان جسد نديم قد استقر على الأرض في الحديقة بالفعل.

بعد أسبوع من التحقيق ومراجعة شهادات كل المسؤولين عن المبنى الذي وقع فيه الحادث، صدر الحكم أخيرًا على الطبيب أيمن الذي يقضي 5 أعوام في السجن بسبب الإهمال الذي تسبب في وقوع نديم ضحية لمريض آخر.

أما ياسين، فقد أغلقت جميع نوافذ الطابق بأعمدة حديدية حتى لا يعاود فعلته، حتى شرفات الممر أُحكِم إغلاقها، وكُلِّف طبيب جديد بحالته.

كان الحراس على بوابة المصحة وكل من بداخلها يعلمون بهويتي جيدًا، فقد ترددت على المصحة لسنوات عدة، بل قضيت طفولتي هناك، نلعب أنا ونديم في غرفته أو بالحديقة ونهتم بزهرتنا، أخبرت

الحارس يومها أنني أتيت لأخذ زهرة الليلك ونقلها من الحديقة إلى بيتي، كان موعد استراحة طاقم التمريض والأطباء، فتسللت خفيةً وصعدت الدرج إلى الطابق الثالث محاولة ألا يراني أحد يعرفني بشكل شخصي، نظرت من الأسفل قبل صعودي إلى نوافذ الطابق الثالث، كانت نافذة غرفة نديم لا تزال كما هي لم توضع عليها الأعمدة الحديدية بعد بسبب تحقيقات الشرطة، تسللت خلال الممر وصولًا إلى غرفة ياسين، ثم من تحت الباب دسست ورقة كنت قد وضعت رسمي عليها خلال الأسبوع المنصرم، وفتحت قفل باب الغرفة الموصد من الخارج، ثم اتجهت نحو غرفة نديم القديمة، توجهت إلى الداخل وفتحت شرفتها، ثم تركت بابها مفتوحًا ورحلت عن المصحة وزهرتي بيدي.

لم يكن من الغريب أن أسمع عن سقوط ياسين من الشرفة نفسها جثة هامدة في جريدة الصباح التالي، بعد أن وُجد في غرفته رسم لصبي يطير على بساط سحري فوق حديقة خضراء، يبدو أن الفتى أخيرًا قد انتهز فرصته، وحان الوقت لنديم أن ينام مرتاحًا...

***

خلال العامين الماضيين منذ رحيل نديم وحتى اليوم، لم أتوقف عن الرسم، كان الشيء الوحيد الذي يبعد عن رأسي الأفكار السيئة والكوابيس التي تنتابني ليلًا، كنت دائمًا ما أحمل معي أوراقي وزهرة الليلك الخاصة بنا، كان رابطنا لا ينكسر، حتى إنني كنت أراه أحيانًا حين أستيقظ من نومي في منتصف الليل يقف بجوار فراشي ويبتسم لي...

الليلة بشكل خاص كان نديم يقف بشرفتي بجانب الزهرة، لا أعلم إن كان هنا ليواسيني في فقدان الجار العجوز، أم لنحتفل معًا بوصول بريد انتظرناه منذ عامين، حاملًا أخبارًا تؤكد شكوكنا حول عادل والخبيثة جيلان، كانت مجرد بداية، بداية طريق لا أعلم أين سينتهي بنا هذه المرة، لكني على ثقة بأننا سنسلكه معًا كما فعلنا دائمًا، سيعتني كل منا بالآخر حتى النهاية.

النهاية